كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

المَلَكَة اللُّغويّة في فِكر محمود الطناحيّ
تكَوُّنُها – استِواؤها – عوامِلُ ضَعفِها

إعداد

د/ حسام عبد العزيز عبد الجليل

أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة حلوان

(العدد الأربعون)

(إصدار أكتوبر – الجزء الأول)

(١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م)

المَلَكَة اللُّغويّة في فِكر محمود الطناحيّ
تكَوُّنُها – استِواؤها – عوامِلُ ضَعفِها

حسام عبد العزيز عبد الجليل
قسم الدراسات اللغوية، كلية الآداب، جامعة حلوان، مصر.
البريد الإلكتروني: hossam_abdelgalil@arts.helwan.edu.eg

الملخص:
بحث: "المَلَكَة اللُّغويّة في فِكر محمود الطناحيّ: تكَوُّنُها – استِواؤها – عوامِلُ ضَعفِها" جاء في مقدمة ومدخل ومبحثين وخاتمة، تحدثتُ في المقدمة عن سبب اختيار هذا الموضوع وأهميته، وحدوده، والدراسات السابقة، والمادة العلمية التي اعتمدت عليها في استخلاص آراء الطناحي في الملكة اللغوية من بين مؤلَّفاتِه، وتبويب البحث، وعرضتُ في المدخلِ تعريفَ الملكة اللغوية لغوِيًّا واصطِلاحِيًّا، وجاء المبحث الأول بعنوان: تكوُّن الملَكَةِ اللغَوِيَّة في فِكرِ الطناحي ووسائل تغذِيَتِها، وكان عنوان المبحث الثاني: عوامِلُ ضَعْفِ المَلَكَةِ اللغوية في فِكرِ الطناحي والتي تمثَّلت في أربعة عوامِلَ أبان عنها البحثُ، وجاءت الخاتمةُ متضَمِّنَةً النتائج التي انتهى إليها، أعقبها قائمة المراجع.

الكلمات المفتاحية: المَلَكَة اللغوية، محمود الطناحي، تكوُّن الملَكَة، استواء الملَكَة، ضَعف الملكة.

Language Faculty in Mahmoud Al-Tanahi's Thought: Formation, Matureness, and Weaknesses Factors"

Hossam Abdel Aziz Abdel Jalil

Department of Linguistic Studies, Faculty of Arts, Helwan University, Egypt.

Email: hossam_abdelgalil@arts.helwan.edu.eg

Abstract

Research Title: "Language Faculty in Mahmoud Al-Tanahi's Thought: Formation, Matureness, and Weaknesses Factors" m The research consists of an introduction, a preamble, two themes, and a conclusion. In the Introduction, I clarified why I chose this topic, its importance and limits, previous studies, scientific material upon which I used to capture the views of Al-Tanahi in the language faculty among his writings, and research categorization. In the Preamble, I presented the definition of language faculty linguistically and terminologically. The First Theme is entitled "The Composition of Language Faculty in Mahmoud Al-Tanahi's Thought and its Development Tools". The second theme is entitled "The Weaknesses of Language Faculty in Mahmoud Al-Tanahi's Thought", which

consist of four factors, clarified in the research. The Conclusion included the reached results, followed by the References List.

Keywords: Language Faculty, Mahmoud Al–Tanahi, Faculty's Formation, Faculty's Matureness, Faculty's Factors.

مـــقـــدمـــة

لا يخفَى على أحَدٍ ما وَصَلَ إليهِ حالُ أبناءِ العربيةِ في عَصرِنا الحاضِرِ مِنَ ضَعفِ مَلَكَتِهم اللُّغَويَّةِ وعَدَمِ تَمَكُّنِهِم مِن لُغَتِهم الأُمِّ تَحَدُّثًا وكِتابَةً، وفَهمًا واستِيعابًا لنُصُوصِها المقروءَةِ أو المسمُوعَةِ، ولا يُستَثنَى من ذلك المُتَخَصِّصونَ إلا مَنْ رَحِمَ رَبِّي، وقد كُتِبَ في هذا الموضوعِ كثيرٌ من المقالاتِ، وعُقِدَت كثيرٌ من النَّدَواتِ والمُؤتَمَراتِ، وخرجت عديدٌ من التوصياتِ سعيًا لمُعالَجَةِ القصُورِ الواضِحِ على ألسنَةِ المُتَكَلِّمِينَ بالعربيةِ والكاتِبينَ بحُروفِهَا، وما زالَ الأمرُ على ما هُوَ عليهِ، بل رُبَّمَا يزدادُ سوءًا يومًا بعدَ يَوم، وقد تطرَّق الدكتور محمود الطناحي – رحمه اللهُ وطَيَّبَ ثَراهُ – لهذا الموضوعِ لِشِدَّةِ أهمِّيَّتِهِ مُحَذِّرًا ممَّا وصلَ إليهِ مستوى المتعلِّمين لاسيَّما المتخصِّصونَ منهم، مُنَبِّهًا إلى أنَّهُ سيؤَدِّي إلى كارِثَةٍ إذا لم يُعالَج؛ يقول رحِمَهُ الله: "لم يعُد خافيًا على أحَدٍ ذلك التَّدَنِي الذي وصلَ إليهِ خرِّيجُو أقسامِ اللغةِ العربيةِ في جامِعاتنا خلالَ العقودِ الأخيرَةِ، وهؤلاءِ الخرِّيجون هم الذين يتولّونَ تعليمَ أولادِنا في المدارسِ، وهم أيضًا الذين يُسمِعونَنا الكلمةَ العربيَّةَ من خلالِ الإذاعَةِ والتليفزيون، ولو تُرِكَ الأمرُ على ما هوَ علَيهِ الآنَ فاللهُ وحدَهُ هو الذي يعلَمُ أبعادَ الكارِثَةِ التي ستُطبِق على هذِه الأمَّة، ونخشى أن تغشانا طَوَارِقُها ذاتَ يومٍ وقد استحالَ تُراثُنا الذي ضنيَ بهِ الأوائِلُ خلالَ أربَعَةَ عشَرَ قَرنًا من الزمانِ ألغازًا أو طِلّسماتٍ كالّذي نراهُ على جُدرانِ المعابِدِ والمقابِرِ ولَفائِفِ البردِي، رموزًا قديمَةً تَخفى على جمهَرَةِ النَّاسِ ولا يعقِلُها إلا العالِمُون، ويومها سنقول:

استَعْجَمَتْ دارُ مَيٍّ ما تُكَلِّمُنا والدارُ لو كَلَّمَتنَا ذاتُ أخبارِ[1]

(١) البيت من البسيط، جاء في ديوان النابغة الذبياني ضمن قصيدَة عِدَّتُها ستَّةٌ وثلاثون بيتًا ذكَرَ المحقِّقُ أنَّها منحولَة، ورواية الديوان: استَعْجَمَتْ دارُ نُعمٍ ما تُكَلِّمُنا =

.....

وها هِي نُذُرُ الفِتنَةِ قد أَطَلَّت برأسِها فَلَن يستَطيعَ أحَدٌ مهما غَلا في تقديرِ كُلِّيَّتِهِ أو مَعهَدِهِ أن يزعُمَ أنَّ طالِبًا مُتَخَرِّجًا في هذا المعهَدِ أو تِلكَ الكُلِّيَّةِ يستطيع – الآن– أن يقرأَ سطرًا واحِدًا من كتابِ سيبَويه، فضلًا عن أن يفهَمَهُ أو يَفُكَّ رُموزَه، وإذا لم يستَطِع خرِّيجُ كُلِّيَّةٍ تُعنَى باللغَةِ العربيَّةِ وآدابِها أن يقرأَ سيبويه فَمَن ذا الذي يقرؤهُ؟ وإذا لم يقرأْهُ في سنِيِّ دراسَتِهِ فَمَتى يقرَؤُهُ؟"[1].

وترجِعُ هذهِ الكارثَةُ التي حَذَّرَ مِنها أستاذُنا في المقامِ الأوَّلِ إلى ضَعفِ التَّنشِئَةِ اللغَوِيَّةِ للمُتعلِّمين مِمَّا ينعَكِسُ سَلبًا على مَلَكَتِهم اللغويَّةِ، وقد حظِيَ موضوعُ الملكةِ اللغويةِ عندَ علمائِنا القُدامَى بكثيرٍ من الدراساتِ وبخاصَّةٍ عند عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢: ٨٠٨هـ)[2] في المقدِّمةِ التي كان لها القِسطُ الأكبر في هذا الجانب؛ إذ اهتَمَّ بها عَدَدٌ من الباحثين على كثيرٍ من الأصْعِدَةِ مَا بينَ

= انظر: ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب، العدد ٥٢، دار المعارف، الطبعة الثانية د.ت: ٢٠٢.

(١) في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢م: ٢/٥٠٣-٥٠٤.

(٢) تنظَرُ ترجمتُهُ في: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، دار الجيل، بيروت، د.ت: ٤/١٤٥، والأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م: ٣/٣٣٠، وابن خلدون: حياته وتراثه الفكري، محمد عبد الله عنان، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى:١٩٣٣م، والتعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م، وعبد الرحمن بن خلدون: حياته وآثاره ومظاهر عبقريته، علي عبد الواحد وافي، سلسلة أعلام العرب، ٤، مكتبة مصر، د.ت: ٩-٢٧، ودراسات عن مقدمة ابن خلدون، ساطع الحصري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٦٧م:٤٢-٥٢، وتمهيد د. علي عبد الواحد وافي للمقدمة، دار نهضة مصر، الطبعة السابعة ٢٠١٤م: ١/٢٦-١٧٤.

الدرسِ الاجتماعيّ والتاريخيّ واللغويّ، وللدلالة على أهمية الجانِبِ اللغوي في مقدِّمَةِ ابنِ خلدون يكفي أن أشيرَ إلى ما ذكَرَهُ الدكتور عبد السلام المسدِّي –على سبيلِ المِثالِ – من أن ابنَ خلدون "في تاريخِ الحضارةِ العربيةِ الإسلاميةِ آخرُ من حاوَلَ تقديمَ نظرةٍ شموليةٍ في القضية اللغوية تتسم بالجِدَّةِ والطّرافَة، والذين جاءوا بعده إنما اقتصروا على تناقُلِ الموروث"(١).

ومِن ثَمَّ لَفَتَ هذا الجانِبُ اهتِمامَ كثيرٍ من الدَّارِسِينَ بالبَحثِ اللغوِيِّ في المقدِّمَة فتَعَدَّدَت الأبحاثُ التي دارَتْ حَولَها؛ ولعَلَّ أَوعَبَ مَا ذُكِرَ عن الكُتُبِ والدراساتِ والبحوث التي أُلِّفَت عن ابنِ خلدُون عامَّةً والمُقدِّمَة خاصَّةً ما أحصاه الدكتور علي عبد الواحد وافِي في خِتَامِ الدراسةِ التمهيدية التي خصَّصها للحديثِ عن ابنِ خلدُونِ وما أُلِّفَ عَنهُ بالعربيةِ وبِغَيرِهَا من اللغات فِي مقدمَةِ تحقيقِهِ للمُقَدِمَةِ؛ إِذْ أحصى ما يزيدُ عن سبعِينَ كِتابًا وبحثًا منشورًا باللغة العربية وغيرِها(٢)، فضلًا عن بعضِ الرسائل الجامعية التي أشرفَ عليهَا الدكتور وافِي، واستغرَقَت هذه الدِّراسةُ القَيِّمَةُ أكثَرَ من نصفِ المجَلَّدِ الأول من المجلداتِ الثلاثة التي صدرت فيها؛ إذ وقَعَت هذه الدراسةُ في سبعٍ وسبعينَ ومئَتَي صحيفة (٢٧٧) من مجموع أربع وستِّينِ وأربعمِئَة صحيفة (٤٦٤) اشتملَ عليها المجلد الأول. ثم تتابع الاهتمام بالملكةِ اللغويةِ في المقدمة على نَحوٍ لافِتٍ في السنواتِ

(١) عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثانية ١٩٨٦م، صـ:٣٧.

(٢) انظر: مقدِّمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، الطبعة السابعة ٢٠١٤م: ١/٢٦٩-٢٧٧.

الأخيرةِ؛ وحَظِيَت بكثيرٍ من الدراسات في العالم العربي وبشكلٍ خاصٍّ في بلاد المغربِ(١).

---

(١) مِمَّا وقَفتُ عليه من تلك الدراسات:

١. الملكة اللغوية عند ابن خلدون؛ دراسة لسانية مقارنة، فايز عيسى المحاسنة، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد الثالث، العدد الثالث ٢٠٠٧م، صـ ١٣٣-١٥١.

٢. المَلكة اللسانية عند ابن خلدون، عبد البديع النيرباني، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨٥، الجزء الرابع، ٢٠١٠م، صـ ١٠٥٥-١٠٧٦.

٣. اكتِساب اللغة وتعليمها عند ابن خلدون في ضوء الدراسات اللغوية النفسية الحديثة، قمقام فوزية، مجلة الذاكرة، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، المجلد الأول، العدد الأول، ٢٠١٢م صـ ٢٤٣-٢٥٢.

٤. الاكتساب اللغوي وقضاياه عند ابن خلدون، طارق ثابت، المؤتمر العلمي الدولي" ابن خلدون: علّامَة الشرق والغرب" كلية الآداب، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، أكتوبر/تشرين الأول 2012م.

٥. ابن خلدون وعناصر اكتساب ملكة اللغة، سعيد بو خاوش، مجلة الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات جامعة البليدة ٢، العدد السادس، ٢٠١٤م، صـ ١٢١-١٤٢.

٦. الملكة اللسانية عند ابن خلدون، بوهني مصطفى، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية،الجزائر، المجلد الرابع، العدد الثامن،٢٠١٦م: ٩٤-١٠٣.

٧. الملكة اللغوية بين ابن خلدون وتشومسكي؛ مقارنة لسانية، راضية بن عربية، مجلة الحوار الثقافي، جامعة ابن باديس، مستغانم، الجزائر،المجلد الخامس، العدد الثاني ٢٠١٦م، صـ ٢٩-٣٩.

٨. أهمية الملكة في تعليم اللغة عند ابن خلدون على ضوء النظرية اللسانية الحديثة، عبد العليم بوفاتح، مجلة جسور المعرفة، جامعة حسيبة بن بو علي، شلف، الجزائر، العدد العاشر، ٢٠١٧م، صـ ١٢٧-١٤٠. =

الدراسات السابقة:

في الوقت الذي تعدَّدت فيه هذه الدراساتُ التي تناولَت آراءَ ابنِ خلدون في الملكةِ اللغويةِ وعندَ غيرِهِ من علمائِنا القُدامَى مِثل حازم القرطاجنِّي[1]، لم أقِف على دراسةٍ تناولت موضوعَ الملكةِ اللغويةِ عندَ أستاذِنا الدكتور محمود الطناحي(١٩٣٥-١٩٩٩م)[2] طَيَّبَ اللهُ ثراهُ وأجزل مثوبته، وهو عَلَمٌ ثِقَةٌ من أعلامِ الدَّرسِ اللغَوِيِّ العَرَبِيِّ المعاصِرِ ومِن شَوامِخِ المُحقِّقين، أشادَ بِه جَمعٌ من العُلَماءِ الأعلامِ في الدَّرسِ اللُّغَوِيّ؛ وكُتِبَ عنه كثيرٌ من المقالاتِ للتعريفِ بشخصِيَّتِهِ عالِمًا وإنسانًا؛ ومِمَّا وقفتُ عليه من ذلك:

---

٩. الملكة اللغوية عند المتعلم في الدرس الخلدوني، بن يحيى زكية، رسالة ماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر ٢٠١٧م.

(١) الملكة اللسانية عند علماء العربية، حازم القرطاجني أنموذجًا، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ٢٠١٥م.

(٢) تنظر سيرته الذاتية، وإنتاجه العلمي تحقيقًا وتأليفًا في مقدِّمَة الجزء الأول من كتاب: في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، دار الغرب الإسلامي، د.ت: ٧-١٥، ومَقالات العلَّامة الدكتور محمود محمد الطناحي، صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م :٢٢-٢٩، ومحمود الطناحي ذِكرى لن تغيب، محمد محمود الطناحي، مطبعة المَدَنِي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ومحمود الطناحي عالم العربية وعاشق التراث، أحمد العلاونة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ومقالة بعنوان: العلَّامة الدكتور محمود الطناحي خاتِمة جيل الرُّوَّاد: سيرة في سطور، إياد أحمد الغوج، مِن أسرارِ اللُّغَةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ، مُعجم لُغوي ثقافِي، محمود الطناحي، المكتبة المكية، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م: ١٧-٤٥، وموسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م: ١٩/١١٠-١١٣.

١- محمود محمد الطناحي عالم التراث والمحقق الموسوعي، د. أيمن فؤاد سيد[١].

٢- محمود محمد الطناحي: ذكرى لن تغيب[٢]، وهو كتابٌ تِذكارِيٌّ ضمَّ خمسَةً وخمسينَ مقالًا مِمَّا كُتِبَ في رِثائِه.

٣- شوامخ المحقِّقين[٣]، اشتَمَلَ على أربَعِ مقالاتٍ؛ جاءت تحت العنوانات الآتية:

- محمود الطناحي عاشق التراث، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف.
- الطناحي ماسةٌ متألِّقةٌ في حِمى التراث، للدكتور أحمد كشك.
- محمود الطناحي وتحقيق التراث العربيّ، للدكتور عشري محمد الغول.
- محمود الطناحي: صفحاتٌ من حياتِه، للدكتور محمد محمود الطناحي.

٤- محمود الطناحي عالِمُ العربيَّةِ وعاشقُ التراثِ، أحمد العلاونة[٤]، تضمَّن الكِتابُ فصلَين بعد المقدِّمَة؛ جاء الأولُ بعنوان: لمحات من حياتِه، والثاني بعنوان: تعريف بآثارِهِ تأليفًا وتحقيقًا.

---

(١) نُشِرَ بمجلة الهلال، العدد ٦، يونيو ١٩٩٩م: ٢٤-٣١.

(٢) الطناحي، ذِكرى لن تغيب، إعداد محمد محمود الطناحي، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

(٣) شوامخ المحقِّقين، مُحاضَراتِ الموسم الثقافي لمركز تحقيق التراث، دار الكتب والوثائق القومية، تحرير حسام أحمد عبد الظاهر، ٢٠١٤م: ٢/٣٢١-٣٥٨.

(٤) محمود الطناحي عالِمُ العربيَّةِ وعاشقُ التراثِ، أحمد العلاونة، ضمن سلسلة علماء ومفكرون معاصِرون، لَمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم، العدد ٩، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، وقد وجدت على شبكة الإنترنت عناوين لكتابين لم يتيسَّر لي الاطلاع عليهما؛ الأول بعنوان: محمود محمد الطناحي العالم الإنسان، مشاري بن حمود الجميل، دار النابغة للنشر، والثاني بعنوان: صفحات من حياة العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي، شرف لمين، الدار المغربية، دار الكلمة للنشر والتوزيع ٢٠١٩م.

وقد نوقِشَت رسالةُ ماجستير بعنوان: الفِكر اللُّغَوي عندَ محمود الطناحي، للباحث يوسف بن محسن بن مصلح العمري، بكلية العلوم الإنسانية جامعة الملك خالد بالمملكة العربية السعودية عام ٢٠١٩م، وإنْ لم يتيَسَّرْ لي الاطِّلاعُ على الرسالَةِ كامِلَةٍ فقد وَقَفتُ على فهرس محتوياتِها فوجدتُها تحتوي على أربَعَةِ مباحِثَ بعد المقدَّمةِ والتمهيد، تضمَّنَ كُلُّ مبحثٍ قِسمَين على النحو الآتي:

المَبحث الأول بعنوان: الدَّرس الصَّوتِي في مُؤلَّفاتِ الطناحي؛ ويضُمُّ قِسمين؛ الأوَّل: القَضايا الصَّوتيَّة في مؤلَّفاتِ الطناحي، والثاني: سِمات الفِكرِ الصَّوتِيِّ عند الطناحي، والمَبحث الثاني بعنوان: الدَّرس الصَّرفِيّ في مُؤلَّفاتِ الطناحي؛ ويضُمُّ قِسمين؛ الأوَّل: القَضايا الصَّرفيّة في مؤلَّفاتِ الطناحي، والثاني: سِمات التفكير الصَّرفي عند الطناحي، والمَبحث الثالث بعنوان: الدَّرس النَّحويّ في مُؤلَّفاتِ الطناحي؛ ويضُمُّ قِسمين؛ الأوَّل: القَضايا النَّحويّة في مؤلَّفاتِ الطناحي، والثاني: سِمات التفكير النحويّ عند الطناحي، والمَبحث الرابع بعنوان: الدَّرس الدّلاليّ في مُؤلَّفاتِ الطناحي؛ ويضُمُّ قِسمين؛ الأوَّل: القَضايا الدلالية في مؤلَّفاتِ الطناحي، والثاني: سِمات التفكير الدلاليّ عند الطناحي، وفي ضوء ذلكَ يتَّضِحُ أنَّ الوِجهةَ العلمِيَّةَ لِهذه الرسالَةِ بِمَنأًى عن موضوعِ المَلَكةِ اللغَويَّةِ الذي يتناولهُ هذا البحثُ؛ إذ لم يرِدْ لها ذِكرٌ في فهرس محتوياتِ الرِّسالَةِ، ولم يرِد ما قد يُشيرُ إلى أنَّ الباحِثَ قد تعَرَّضَ لهذهِ القضيَّةِ من قريبٍ أو بعيدٍ.

وثمَّة رسالة ماجستير أُخرى قيد التسجيلِ هذا العام (٢٠٢١م) بمعهدِ المخطوطاتِ العربيَّة بالقاهرة بعنوان: منهج محمود الطناحي في تحقيق النُّصوصِ للباحِث سامح مجدي سعيد عيد، وقد أخبَرَنِي الباحِثُ أنَّ الرسالةَ نفسها سبقَ أن سُجِّلت بمعهد البحوث والدِّراساتِ العربيَّة عام ٢٠١٦م بعنوان مُغايرٍ قليلًا هو: محمود الطناحي ومنهجه في تحقيق النصوصِ التراثيةِ ونَقدِها، وكما يبدو من

العنوانين أنَّ الهدفَ من الرِّسالة بيانُ منهجِ الطناحي –رحِمَهُ اللهُ– في تحقيقِ التُّراثِ مِمَّا ينأَى – أيضًا– عمَّا نحنُ بِصَدَدِ دِراسَتِهِ في هذا البحث، كما أخبرني الصديق الدكتور محمد الطناحي أنَّ رسالَةً أُخرى قيدُ التسجيلِ بعنوان: فن المقال و اتجاهاته عند الدكتور الطناحي بين الرؤية والتشكيل.

ومِمَّا قد يُنبِئُ عن العِلمِ المَوسوعيِّ الذي أحاطَ بِه الطناحيّ – رحمَه الله– أقتَطِفُ –على سبيلِ المثالِ– مِمَّا ذَكَرَهُ عنه كِبارُ عُلمائِنا أربَعَ مَقولاتٍ؛ الأولى ما افتَتَحَ بِهِ الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همّام) –بَرَّدَ اللهُ مضجَعَه– رِثَاءَهُ له بِعنوان: محمود الطناحي: أيُّ عِلْمٍ رُفِعَ! فقال:

"خُلاصةُ السَّلَفِ الكريمِ، من أعيانِ المحقِّقين وشُيوخِ اللغةِ والأدَبِ، وسُلالُةُ النَّبعِ الرَّوِيِّ من جَبابِرَةِ التُّراثِ العربيِّ الأصيل، ووارِثُ علمِ السَّلَفِ العظيمِ، الذي حفِظَ لِلِّسانِ العربيِّ عَبَقَ القُدامَى في قَوارِيرَ عصريَّةٍ، وبقِيَّةٌ مِمَّا ترَكَ الأصمَعيُّ والمُبَرِّدُ وابنُ الأثيرِ والجُرجانيُّ، مَوصولًا بالأَخَوينِ محمود وأحمد شاكِر، وعبد السلام هارون ومحيي الدين عبد الحميد"(١).

والثانية قولُ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف أجزلَ اللهُ مثوبتَه: "ويُمكِنُ القَولُ في غيرِ ما تَرَدُّدٍ ولا لَجلَجَةٍ: إنَّ محمودَ الطناحي ابنٌ بارٌّ من أبناءِ التراثِ العربيِّ الإسلامِيِّ، بل هو مِن أبَرِّ الأبناءِ بِهِ؛ إذ تَشَرَّبَ منهَجَهُ، وفَقِهَ أسرارَهُ، وأتقَنَ المَسالِكَ إليهِ، وآمَنَ بقِيمَتِهِ وقِيَمِه، وتَعَشَّقَ رُمُوزَهُ، وتَهَدَّى بلاغَتَهُ وحُلوَ بَيانِهِ، وتَمَثَّلَهُ اعتِقادًا وسُلُوكًا، عاشَ حياتَهُ يُطلِعُ النَّاسَ على كُنُوزِهِ، ويدلُّهُم علَى غُرَرِهِ وعُيونِه، ويُعرِّفُهُم فرَائِدَهُ وقَلائِدَهُ، ويشرَحُ أساليبَهُ وغَوامِضَهُ، ويُدافِعُ عن قِيَمِهِ

(١) نُشِر بجريدة الأهرام المصرية في ٣٠ مارس ١٩٩٩م، وضمن الكتاب التذكاري: محمود الطناحي، ذِكرى لن تغيب: ١٢٥–١٢٧.

ومَآثِرِه، في يقينٍ ساطِعٍ، وبَيانٍ ناصِعٍ، وتعاطُفٍ حميمٍ، يُغَلِّفُ هذا كُلُّهُ بما وُهِبَهُ من حلاوَةِ الرُّوحِ وخِفَّةِ الظِّلِّ، وهشاشَةِ النَّفسِ وحُسنِ القَبُولِ"(١).

والثالثةُ ما ذَكَرَهُ الدكتور أحمد كشك –مَتَّعهُ اللهُ بمَوفورِ الصَّحةِ والعافِيَةِ– في مُفتَتَحِ مَقالَةٍ بعنوان: الطناحي مَاسَةٌ مُتألِّقَةٌ في حِمَى التُّراث؛ إذ يقول: "لم أَرَ مِمَّن عاصَرتُ علَمًا لُغوِيًّا مُحِبًّا للتُّراثِ، عاشِقًا لِلعربيَّةِ، مُستَمتِعًا بِهَا، حانِيًا علَيها، مُجرِيًا عطاءَها في شُريانِهِ ووريدِهِ مثلَ الطناحِي، الذي أحسبهُ –لِعِشقِهِ للعربيَّةِ– نَظمًا في سِياقِها، وماسَةً من ماساتِ عقدِها"(٢).

والرابعةُ ما ذَكَرَهُ الدكتور ناصر الدِّين الأسد في تقديمِهِ لكِتابِ الدكتور الطناحي: مِن أسرارِ اللُّغَةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ حينَ قالَ: "وإذا كانَ يَحلُو لِبَعضِنا أَن يَصِفَ بعضَ عُلَمائِنا الأَجِلَّاءِ الأحياءِ أو الأَمواتِ بأنَّهُ آخِرُ طَبَقَةٍ مِن كِبارِ العُلَمَاءِ

(١) شوامخ المحقِّقين، مُحاضَراتِ الموسم الثقافي لمركز تحقيق التراث، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٤م: ٣٢٤/٢.

(٢) المرجع السابق: ٣٢٨/٢، ومما يجدُرُ ذِكرُهُ في هذا الصَّدَدِ ومن بابِ التَّحَدُّثِ بالنعمة أنْ قَيَّضَ اللهُ سبحانه وتعالى لصاحبِ هذا البحث أن يجلس من الدكتور الطناحي مجلس التلمَذَةِ المباشرةِ ؛ إذ كان مشرفًا على رسالته في مرحلة الماجستير مع الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي، رحِمَهُما اللهُ وأجزَل مثوبَتَهما، وكانت بعنوان "الكتب النحوية التعليمية في القرن الرابع الهجري" فكانت آخرَ الرسائلِ التي أشرفَ عليها رحمه اللهُ، وكانت الفُرصةُ مُواتِيَةً للاستفادة الكبيرة من توجيهاته العلمية ونظراته التعليمية الصائبة فيما يتعلق بموضوع الرسالة مما أسهَمَ في إنجازها على النحو الذي جاءت عليه، أجيزت الرسالة من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة حلوان عام ١٩٩٩م بتقدير ممتاز، وناقشها كل من الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، طَيبَ اللهُ ثَراه وأجزَلَ مثوبَتَه، والأستاذة الدكتورة وفاء كامل فايد، أطال اللهُ في النعمةِ بقاءها.

أو الشُّعراءِ أو الأُدَباءِ، فإنَّ محمودًا الطناحِيَّ كانَ مَثَلًا مُتَمَيِّزًا على تَواصُلِ الأجيالِ بحيثُ كانَ آخِرَ طَبَقَةٍ سَبَقَتْهُ، وفي الوقتِ نفسِهِ كانَ رأسَ طَبَقَةٍ مِن لِدَاتِهِ وأقْرانِهِ فيها الكثيرُ من الطَّبَقَةِ الأُولَى وفيها الكثيرُ من التجديدِ والابتِداع"[1]، ويُرَجِّحُ الدكتور ناصر الدين الأسد ذِكرَ اسم (محمود الطناحي) مُجرَّدًا من اللَّقَبَينِ الأكادِيميَّين (الأستاذ الدكتور) مُعلِّلًا لذلكَ تعليلًا رائِقًا بقولِه: "ومحمود الطناحي غَنِيٌّ بِعِلمِهِ عن كُلِّ لَقَبٍ ومَنصِبٍ؛ وإنِّي لَأجِدُ فِي ذِكرِ اسمِهِ مُجَرَّدًا من اللَّقَبَينِ اللَّذَينِ يسبِقانِهِ وقْعًا في النَّفسِ، ودِلالَةً على العِلمِ أعمقَ مِمَّا لو قيلَ: الأستاذ الدكتور محمود الطناحي؛ فهذانِ اللقَبانِ أصبَحَا لا يُزَيِّنانِ عالِمًا بعدَ أن تَزَيَّنَ بِهِما وتَزَيَّا في جامِعاتِنا وفي خارِجِها مَن لا يَقبَلُ محمودٌ الطَّناحِيُّ أن يكونُوا تلامِذَةً لهُ ينتَسِبُونَ إلَيهِ"[2].

أمَّا عَمَلِي في هذا البحثِ فقد وجَّهتُ وجهي شطرَ المُنجَزِ الفِكرِيِّ لِعالِمِنا الجليلِ محمود محمد الطناحيّ، أكرَمَ اللهُ وِفادَتَه وبَرَّدَ مضجَعَهُ وأجزَلَ مثُوبَتَهُ جزَاءَ ما قَدَّمَ من عِلمٍ وفَضلٍ يومَ تجِدُ كُلُّ نفسٍ ما عَمِلَت من خيرٍ مُحضَرًا، وبعدَ مُطالَعَةِ هذا المُنجَزِ كامِلًا والذي تَمَثَّلَ في ثلاثةَ عشرَ تحقِيقًا، وخمسَةٍ وثلاثينَ مُؤَلَّفًا؛ بُغيَةَ الكَشفِ عمَّا تتضمَّنُهُ من آرائِهِ الخاصَّةِ في موضوعِ المَلَكَةِ اللُّغويَّةِ مِمَّا رأيتُهُ مبثُوثًا في كثيرٍ من المواضِعِ من مُنجَزِهِ الفِكرِيِّ، أمكَنَ استِخلاصُ تلكَ الآراءِ من خلالِ أربَعَةِ الكُتُبِ الآتِيَةِ:

---

(١) مِن أسرارِ اللُّغَةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ، مُعجم لُغوي ثقافِي، محمود الطناحي، المكتبة المكية، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م: ٦.

(٢) المرجع السابق: ٦-٧.

١– فهارس كتاب الأصول في النحو لأبي بكر بن السراج، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦م.

٢– كتاب الشعر، أو شرح الأبيات مشكلة الإعراب، لأبي علي الفارسي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨م.

٣– مَقالات العلَّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٤– في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، دار الغرب الإسلامي، د.ت، مجلدان.

وقد اتبعتُ في البحثِ المنهجَ الوصفِيَّ التَّحليلِيَّ، ورأيتُ أن أجعَلَهُ في مقدمةٍ ومدخلٍ ومبحثَين؛ تحدثت في المدخل عن تعريف "المَلَكَة" لُغويًّا واصطلاحيًّا، وتناول المبحثُ الأوّلُ كيفيةَ تكوُّنِ الملَكَةِ اللغَوِيَّة وتنميَتِها في المُنجَزِ الفِكرِيِّ لمحمود الطناحي، وعَرَضَ المبحَثُ الثاني عَوامِلَ ضَعفِ الملَكَةِ اللغَوِيَّة من وِجهَةِ نَظَرِهِ رحِمَهُ اللهُ، ثم جاءت الخاتمةُ متضمِّنَةً أهمَّ النتائجِ التي انتهى إليها البحثُ، ثم المراجعَ التي استعنتُ بها.

مـــدخـــل

المَـلَـكَـة لُـغـوِيـاً:

دارت تعريفاتُ القُدَماءِ لِمَا جاء من الأصل الثلاثي (ملك) حول القُدرَةِ والتمكُّن والاستِحكام في الشيء؛ بدايَةً من ابنِ فارس (ت:٣٩٥هـ) الذي رأى أنَّ "الميم واللام والكاف أصلٌ صحيح يدلُّ على قوّةٍ في الشيء وصِحَّة، يُقالُ: أَملَكَ عجينَه: قَوَّى عَجنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكتُ الشيءَ: قَوَّيتُه"[١] ، وذَكَرَ ابنُ سِيدَه (ت:٤٥٨هـ) أنَّ "المَلْك والمِلْك: احتِواء الشيءِ والقُدرَة علَى الاستبدادِ بهِ"[٢]، ونَقَلَ ابنُ منظُور (ت:٧١١هـ) هذا القولَ لابن سيده ونَصَّ على ذلك لكنَّه أضاف (المُلكُ) بضمِّ الميم، ولم أجِدهَا في المُحكَم، جاءَ في اللسان:" ابنُ سيدَه: المَلْك والمِلْك والمُلْكُ: احتِواءُ الشيءِ والقُدرَة علَى الاستبدادِ بهِ"[٣].

وقال الفيروزآبادي (ت:٨١٧هـ) أنَّ:"مَلَكَهُ يَمْلِكُهُ مِلكًا، مُثَلَّثَة، ومَلَكَةً، مُحَرَّكَةً، ومَملُكَةً، بِضَمِّ اللامِ أو يُثَلَّثُ، احْتَواهُ قادِرًا على الاستِبدَادِ بِهِ"[٤].

المَلَكَة اصطلاحياً:

أمَّا المَعنى الاصطلاحي للمَلَكَة فقد ارتكز على الدلالة اللغوية للأصل (ملك)؛ وهُوَ ما يَتَّضِحُ في تعريفِ ابنِ خَلدُون (ت:٨٠٨هـ) للمَلَكَةِ، ولعَلَّهُ

---

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة: ٣٥١/٥-٣٥٢ (م ل ك).

(٢) ابن سيده، المحكم: ٥٤/٧ (م ل ك).

(٣) ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف،٤٢٦٧/٤٧ (م ل ك)

(٤) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م، وهي نُسخَة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية ١٣٠١هـ.: ٣١٠/٣ (م ل ك).

أوَّلُ من قدَّمَ تعريفًا اصطِلاحِيًّا لها بِقَولِهِ : " الملَكة صِفةٌ راسِخةٌ تحصُل عن استعمالِ ذلك الفعلِ وتَكَرُّرِه مرةً بعدَ أُخرى حتى ترسُخَ صُورتُهُ، وعلى نِسبةِ الأصلِ تكون الملكة... وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته"[1].

وتبِعَهُ الشريفُ الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) الذي فرَّقَ بينَ (الحالة) وهي ما تكونُ سريعَةَ الزَّوالِ، و(المَلَكَة) وهي ما تَتَّصِفُ بالثبوتِ والرُّسُوخِ ويُطْءِ الزَّوالِ؛ إذْ يقول: "المَلَكَة هي صِفةٌ راسِخَةٌ في النَّفسِ، وتحقيقه أنَّهُ تحصُلُ للنَّفسِ هيئَةٌ بسَبَبِ فِعلٍ من الأفعال، ويُقالُ لِتِلكَ الهيئة: كيفية نفسانية، وتُسَمَّى حالةً ما دامت سريعةَ الزَّوالِ، فإذا تَكَرَّرَت ومارَسَتهَا النَّفسُ حتى رَسَخَت تِلكَ الكَيفِيَّةُ فيها وصارَت بطِيئَةَ الزَّوالِ فتصِيرُ مَلَكَةً، وبالقياس إلى ذلك الفعلِ: عادَةً وخُلُقًا"[2].

ويقترب من ذلك ما ذكره أبو البقاء الكَفَويّ (ت:١٠٩٤هـ) بقوله: "الملكة تطلق على مقابلة العدم وعلى مقابلة الحال؛ فعلى الأول بمعنى الوجود، وعلى الثاني بمعنى الكيفية الراسخة"[3]، ويقول في تعريف الكيفية: "والكيفية إذا اختصَّت بذواتِ الأنفُس تسمى كيفية نفسانية؛ كالعلم والحياة والصحة والمرض، وإن كانت راسخةً في موضعها تسمّى مَلَكَةً،

(١) ابن خلدون، المقدمة: ٨٥٦/٢.

(٢) الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الريان للتراث (د.ت): ٢٩٦.

(٣) الكفوي، الكليات: ٨٥٦.

وإلَّا تُسمّى حالًا، بالتخفيف، كالكِتابَةِ؛ فإنها في ابتدائها تكون حالًا، فإذا استحكمت صارت ملَكَة"[1].

ولا يبعُدُ عن ذلكَ ما جاءَ في المعجم الوسيط إذْ عَرَّفَ الملَكَةَ بأنَّها: "صِفَةٌ راسِخَةٌ في النَّفسِ، أو استِعدادٌ عقلِيٌّ خاصٌّ لِتَناوُلِ أعمالٍ مُعَيَّنَةٍ بحِذْقٍ ومَهارَةٍ مثل المَلَكَةِ العَدَدِيَّةِ والمَلَكَةِ اللغَوِيَّةِ"[2].

فالمَلَكَةُ إذن صِفَةٌ مُتَمَكِّنَةٌ في النَّفسِ تتأتَّى بالمُمارَسَةِ والدُّربَةِ والتَّكرار وتتميَّزُ بالثَباتِ والرُّسُوخِ، والمَلَكَةُ اللغويَّةُ تعني تَمَكُّنَ صاحِبِها مِن المهَاراتِ اللغويَّةِ الأربع: الاستِماع والتَّحدُّث والقراءةِ والكِتابَةِ.

(١) الكفوي، الكليات: ٧٥٢.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤م (م ل ك).

المبحث الأول

تكوُّن الملَكَةِ اللغَوِيَّة في فِكرِ الطناحي ووسائل تغذِيَتِها

جاءَ حديثُ الدكتور محمود الطناحي عن المَلَكَةِ اللغويَّةِ في مَواضِعَ مُتَفَرِّقَةٍ مِن مُؤلَّفاتِه، وكانت لهُ رؤيتُهُ الواضحة فيما كتب بشَأنِ تَكوُّنِ هذه المَلَكَةِ عِندَ المتعلِّمين، كما كانت لهُ آراؤهُ في سُبُلِ تنمِيَتِها، وإنْ لم يكُن قد تَطَرَّق لتعريفٍ مُحَدَّدٍ لها.

- **أولا: تكوُّن الملَكَةِ اللغَوِيَّة:**

تَطَرَّق الطناحي – رَحِمَهُ اللهُ– في بعضِ المواضِعِ من منجَزِهِ الفِكريِّ إلى الحديثِ عن تكَوُّنِ الملَكَة اللغويَّةِ عندَ المُتعلِّمينَ من خلالِ حديثِهِ عن أَثَرِ البيئَةِ التي يعيشُون فيها، وحدِيثِهِ عنِ الكُتُب التي تُساعِدُ في تَكَوُّنِ هذه الملَكَةِ.

١. أثر البيئة في تكوُّن الملكة:

اتَّضَحَ أَثَرُ التنشِئَةِ الدينية التي نَشَأَ عليهَا الدكتور الطناحيّ –رَحِمَهُ اللهُ– في حديثِهِ عن أثَرِ البيئةِ في تَكوينِ المَلَكَةِ اللُّغَويَّةِ وتنميتِها؛ إذ إنَّهُ أتَمَّ حَفِظَ القرآنِ الكريمِ بِروايَةِ حفصٍ في الثالِثَة عشرة مِن عُمرِهِ، فَرَأى أنَّ تِلاوةَ القُرآنِ الكريمِ وحِفظَهُ لَهُ أثَرٌ إيجابِيٌّ في تكَوُّنِ الملَكَةِ اللغويَّةِ لدى أبناءِ العربيَّةِ وكذلكَ لدى النَّاطِقينَ بغيرِها من المُسلِمين، وذَكَرَ أنَّ البيئةَ العربيةَ لها دَورٌ حتّى فِي تمَكُّنِ غيرِ العَربِ من العربيةِ وإجادتِهم لها، وذَكَرَ أمثِلَةً لذلكَ مِمَّا رُوِيَ عن القُدَماءِ ومِمَّا عايَشَهُ بنفسِهِ واقِعًا؛ ففي سياق حديثِهِ عن تأثير القرآن في المَلَكَةِ اللُّغَويَّةِ يقول:

"ومن عجيب أثرِ القُرآنِ في النّاسِ أنّ ألسِنَتَهُم تجري بِهِ وفقَ قوانينِ العربيةِ وصِفاتِ حروفِها، وإن كانَ التّالِي لَهُ لا يُعطِي هذهِ الحروفَ حقَّها في كلامِه الآخرِ الذي يغدو بِهِ بينَ النّاسِ ويروحُ، ومِن ذلكَ ما ذَكَرَهُ المُترجِمُونَ لأبي حَيَّان النّحوِيِّ الأندَلُسِيّ (٧٤٥هـ) أنَّهُ كانَ ينطِقُ القافَ قريبةً من الكافِ – على لهجَةِ أهلِ الأندلُسِ – لكنهُ كان ينطِقُ بها في القرآنِ فصِيحَةً، وكان يقولُ: "ما في هذه البلادِ – يعني بلادَ الأندَلُس – مَنْ يعْقِدُ حرفَ القافِ" أي: يُعطِيهِ حَقَّهُ الصَّوتِيَّ الذي يفصِلُ بينه وبينَ الكافِ، وقد شاهدتُ أنا من ذلكَ مَن لا يُحصَى من النّاسِ في أثناءِ إقامتي بمكَّةَ البلَدِ الأمينِ، من المسلمين غيرِ العَرَبِ الذينَ يَؤُمُّونَ البيتَ الحرامَ، يقرَءونَ القُرآنَ في يُسرٍ وسهُولَةٍ، فإذا أردتَهُم على شيءٍ من الكلامِ العربيِّ الذي يجري بين النّاسِ تَعَذَّرَ عليهِم ذلك، لكن مِمّا لا شَكَّ فيهِ أنَّ هؤلاءِ النَّاسَ لو وُجِدُوا فِي بيئةٍ عربِيَّةٍ لكانَ حِفظُهُم للقُرآنِ أو تِلاوَتِهِ، مُعِينًا لهُم على مَعرِفَةِ العربيَّةِ، بَلْ وإجادتِها"[1].

ويدخُلُ في تأثير البيئة في الملكةِ اللغويةِ ما سمَّاهُ رحِمَهُ اللهُ (الجَوَّ الأدَبِيّ) المُحِيطَ بالمُتَعَلِّمِ؛ ويقصِدُ بِهِ ما يُعايِشُهُ المتَعلِّمُ خارِجَ حجراتِ الدَّرسِ؛ ففي إطار حديثِهِ عن المستَوَى المُتَدَنِّي للُّغَةِ العربية على ألسِنَةِ المُتَكَلِّمينَ وأقلامِ الكاتِبينَ طالَبَ بإعادَةِ النَّظَرِ في مناهِجِ تدريسِ العربيةِ بدْءًا من المرحَلَةِ الابتِدائِيَّةِ وانتِهاءً بالجامِعَةِ، ثُمَّ دَعَا إلى: "تَنقِيَةِ الجَوِّ الأدبِيِّ خارِجَ المدرَسَةِ والجامِعَةِ من الأَوشابِ والأخلاطِ؛ فالمدرَسَةُ

(١) في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٢م: ٢/ ٧٤٤-٧٤٥، وقد رأيت صدق ذلك في أثناء معايشتي للأتراك مُدَّةَ إعارتي لجامعة ٩ أيلول بمدينة إزمير التركية منذ العام ٢٠١١م.

والجامِعَـةُ لا يعمـلانِ بِمعـزِلٍ عـن الحَيـاةِ العامَّـةِ ... ومَـا يَسـتَقيمُ أن تبنـيَ المَدرَسَةُ والجامِعَةُ وتَهدِمُ المَقاهِي والأتيليهات والمَجَلَّات"(١).

٢. مطالعَة كتبِ النحوِ ومُدارَسَة شواهِدِهَا:

يـرى الـدكتور الطنـاحي أنّ مطالعَـةَ كتـبِ النحـوِ ومُدارَسَـةَ شـواهِدِهَا ومُـذَاكَرَةَ أقـوالِ المُعـربين التـي يتـداولونَها فـي تقـدِيراتِهم الإعرابيـة يسـاعِدُ عـلى تكـوُّنِ الملكَـةِ عنـد المتعلِّمـين؛ وذلـك بمـا يعلـقُ فـي أذهـانِهم مـن تلـك الأقـوالِ فـي زمـنَ الطَّلَـبِ مِمَّـا يكـونُ لـهُ تـأثيرٌ فـي تكَـوُّنِ ملَكَـتِهم اللغَويَّـةِ، حتـى إذا جـاء وقـتُ الحاجـةِ إليـهِ مُسـتَقبَلًا حـينَ تَخفَـى بعـضُ هـذهِ الوجُـوهِ علـى المُتعلّمـينَ يكـونُ اسـترجَاعُهَا مِـن ذاكـرَتِهم ميسُـورًا دون عنـاءٍ، ويُبَـرهِنُ علـى ذلـكَ بمـا نَشَأَ عليهِ ودَرَسَهُ هو وأقرانُهُ في مراحلِ تعليمهم الأُولى.

ففـي سـياقِ حَدِيثِـهِ عَمَّـا فَطِـنَ إليـهِ العلمـاءُ القُـدَماءُ مِمّـا قَـد يكـونُ مِـن تَعـارُضٍ بـينَ مُقتَضَـى المَعنَـى وحَـقِّ الإعـرابِ، يقـولُ رحِمَـهُ الله: "إنَّ كَثـرَةَ الوُجُـوهِ الإعرابِيَّـةِ وإفَاضَـةَ النُّحـاةِ فيهـا ومـا يسـتَتْبِعُ ذلِـكَ مِـن اسـتِطرادٍ إلـى تقـدِيرِ الحُـذُوفِ وذِكـرِ الأشـباهِ والنَّظَـائِر هُـوَ مـا يَصـنَعُ المَلَكـةَ النَّحويَّـة، ويُثَبِّـتُ العربيَّـةَ قـراءَةً وكِتابَـةً، ولا زِلنـا نحـنُ أبنـاءَ ذلـكَ الجِيـلِ الـذي تسـتطيعُ أن تَشُـمَّ فيـهِ رائِحَـةَ العِلـمِ؛ لأننـا ورَدْنـا المـاءَ صـافِيًا قبـلَ أن تُكَـدِّرَهُ الـدِّلاءُ، ولأننـا أدركْنـا مَعاهِدَ العلمِ قبلَ أنْ يَدهَمَهَا السَّيلُ "(٢).

---

(١) مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ٢٦٧–٢٦٨.

(٢) كتاب الشعر، أو شرح الأبيات مشكلة الإعراب، لأبي علي الفارسي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨م، مقدمة التحقيق:٣٧

وبعد أن يُعَدِّدَ بعضَ الشَّواهِدِ النحوية لاختِلافِ المعنَى باختلافِ الإعراب، يقول: "كُلُّ هذا كُنَّا نَستَظْهِرُهُ ونُديرُهُ على ألسِنَتِنا في سهولَةٍ ويُسرٍ – وكانت أسنَانُنَا في تلك الأيامِ لا تَتَجاوَزُ الخامِسَةَ عشَرَةَ – بل إنَّ بعضَ تقديراتِ المُعرِبينَ في الشواهِدِ الشِّعريَّةِ كانَت تنثَالُ علَينا انثِيَالًا، دون إعناتٍ أو استِكراهٍ"، ويذكُرُ بعضَ الشواهدِ القُرآنِيَّةِ والشعريَّةِ مُعَقِّبًا بقولِه: "نَعَم، كل هذا عرَفناهُ وخَبرناهُ، وجَرَى مِنَّا مَجرَى المحفوظَاتِ والمأثُوراتِ، فأورَثَ مَلَكَةً في النَّحوِ، وأكسَبَ إحساسًا بالعربيةِ، في أبنِيَتِها وتراكيبِها، حتى إذا غَبِيَ علَينَا شيءٌ من هذه الأبنيةِ والتراكيبِ فزِعنَا إلى هذا المَذْخُورِ مِن زمانِ الصِّبا فأسفَرَ وجهُهُ، ودانَ عَصِيُّهُ"(١).

- ثانيًا: وسائل تغذِيَةِ الملكَة اللغوية وتنميتها:

يُمكِنُ استِخلاصُ وِجهَةِ نَظرِ الدكتور الطناحيّ في الوسائلِ التي تُؤَدِّي إلى تغذِيَةِ الملَكَةِ اللغويَّةِ وتنمِيَتِها لدَى المُتَعَلِّمِين من خلال حديثِهِ عن جانِبَينِ اثنَينِ وما تَفَرَّعَ عنهُما؛

أمَّا الجانبُ الأوَّلُ فيتَعَلَّقُ بالمناهِجِ التَّعليمِيَّةِ، ويتضمَّنُ هذا الجانِبُ مُطالَبَتَهُ –رَحِمَهُ اللهُ – بإعادَةِ النَّظَرِ في المناهِجِ التعليمِيَّةِ في المراحِلِ الدراسيَّةِ المختلفَةِ، وثناءَهُ على المَناهِجِ الدِّراسِيَّةِ القديمَةِ، والتَّنبيه على ضَرورَةِ الاهتِمامِ بمَورُوثِنا الأدَبيِّ، ويتَعَلَّقُ الجانِبُ الثَّانِي بأهميَّةِ مُراعاةِ المُستَوى التَّعليمِيِّ للطُّلابِ، والتَّدَرُّجِ في تقديمِ المادَّة التعليمِيَّةِ لهُم بحسَبِ المرحلَةِ التَّعليميَّةِ التي يدرُسُونَها، وفي إطارِ ذلكَ ذكرَ أمثِلَةً لِلكُتُبِ

(١) كتاب الشعر:٣٨.

النَّحويَّةِ التي تُلائِمُ المبتدِئينَ، وما لا ينبغي دِراسَتُهُ من الكُتُبِ إلَّا فِي المراحِلِ المُتقدِّمَةِ من التعليمِ.

١- المناهِج التعليمِيةِ المناسِبة.

يَرى الدكتور الطناحيّ أنّ المناهِجَ التعليميةَ التي تُقَدَّمُ لطُلّابِ العربيَّةِ ينبغي أن تكونَ مِمَّا يُساعِدُ على تكوينِ المَلَكَةِ اللغويَّةِ لدَى المتعلِّمين ويُسْهِمُ في تنمِيَتِها وصَقْلِها؛ فَطالَبَ بإعادَةِ النَّظَرِ في المناهِجِ الدِّراسية في جِميعِ المراحِلِ التعليمِيَّةِ، وأثنَى رَحِمَهُ اللهُ على المناهِجِ الدِّراسِيَّة قديمًا في الأزهرِ الشريفِ وفي التعليمِ العام، كما أثنَى على الكُتُبِ التي عدَّها ابنُ خلدون أُصولَ الأَدَبِ، وأوصَى باختيارِ الكُتُبِ من موروثِنا الأدبِيِّ التي تُصْقِلُ الملكَةَ وتنمِّيها، مُستَنْكِرًا عدَمَ إيلاءِ الجيلِ الجديدِ من المتعلِّمينَ العنايَةَ اللازِمَةَ لهذَا المَوروثِ، لائِمًا في الوقتِ نفسِهِ الأساتِذةَ على تقصِيرِهم، وفي هذا الصَّدَدِ كانَ للطناحي اعتِناءٌ كبير بمؤلَّفاتِ الجاحِظِ عمومًا وكتابِ البَيان والتبيين على نَحوٍ خاصٍّ.

أ- المُطالَبَة بإعادَةِ النَّظَرِ في المناهِجِ الدِّراسية.

أمَّا مُطالَبَتُهُ بإعادَةِ النَّظَرِ في المناهِجِ الدِّراسيةِ فَكانَ في سياقِ حديثِهِ عن المستوى المُتَدَنِّي الذي وصلت إليه اللُّغَةُ العربيَّةُ على ألسِنَةِ المُتَكَلِّمِينَ وأقلامِ الكُتَّابِ إذْ يقولُ: "والقَضِيَّةُ لابُدَّ أن تُوضَعَ فِي حاقِّ مَوضِعِها إن كُنَّا صادِقينَ؛ أولًا: إعادَةُ النَّظَرِ في مناهِجِ تَدريسِ العربيَّةِ بدْءًا من الابتدائيِّ وانتِهاءً بالجامِعَةِ، بحيثُ تكونُ مناهِجَ تَرُدُّ التلاميذَ إلى تاريخِهِم، ورَبطِهِم بعِلمِ الآباءِ والأجدَادِ، ولا أقُولُ (تُراثهم)؛ فإنَّ هذِهِ الكلِمَةَ أصبَحَت بغِيضَةً عِندِي جِدًّا، لِما تُوحِي بِهِ هذِهِ الأيَّامَ عِندَ بَعضِ النَّاسِ من

الماضِي السَّحِيقِ والمتحفِيَّاتِ"[1]، ثُمَّ يذكُرُ رَحِمَهُ اللهُ نماذِجَ مِمَّا كانَ يدرُسُهُ هو وأقرانُهُ أيَّامَ الطَلَبِ مِمَّا كانَ لهُ أعظَمُ الأثرِ في رُسوخِ ملَكَتِهم اللغوية؛ قائلًا: "لقد كُنَّا في طُفُولَتِنا وصَدرِ شَبَابِنَا نَحفَظُ الشِّعرَ الجاهِلِيَّ ومُتُونَ العُلُومِ فِي الصَّباحِ، ونَلعَبُ الكُرَةَ الشَّراب عِندَ العَصْرِ، فَجَرَتِ اللُّغَةُ في عُروقِنَا، واختَلَطَتْ بِلَحمِنا وعَظمِنا، ومَا أمرُ (مجمُوعة النَّظمِ والنَّثْرِ) لِعَبد الله باشا فِكرِي، و(المُنتَخَب من أَدَبِ العَرَبِ) لِلسكَندَرِيِّ وأصحابِهِ بِبعيدٍ، وهكذَا الشَّأنُ عِندَ جَميعِ الأُمَمِ؛ فتلامِيذُ المَدَارِسِ الإنجليزِيَّةِ يقرءونَ (شكسبير) ويعرِفونَهُ جيِّدًا، وتلامِيذُ المَدَارِسِ الألمانِيَّةِ يقرءونَ (جوتَه) ويعرِفونَهُ جيِّدًا، مع الاحترامِ الزَّائِدِ والتَّوقيرِ الشَّدِيدِ"[2].

ب- الثناء على المناهِجِ الدِّراسِيَّةِ القديمة.

ذَكَرَ الطناحيّ أن مناهِجَ الدِّراسَةِ فيما مَضَى كانت مِمَّا يُساعِدُ على تغذِيَةِ المَلَكَةِ اللغوِيَّةِ وتَنمِيَتِها؛ ونصَحَ زُملاءَهُ من الأساتذةِ بالاهتِمامِ بِكُتُب الأدَبِ التُّراثِيَّة، التي تستَقيمُ بها الألسِنَةُ، وترتَقِي بِها الأذواقُ، وتستَوِي بِمُطالَعَتِها الملكاتُ اللغوِيةُ، كما تَطَرَّقَ –رَحِمَهُ اللهُ– لمَا ذَكَرَهُ ابنُ خلدُون عن الكتُبِ الأربعةِ التي عَدَّها أُصولًا للأدَب.

ففي سياقِ حديثِهِ عن الشيخِ الشعراوِيّ يقول: " والشّيخُ – كما هُوَ مَعروفٌ – مُتَخَرِّجٌ في كليَّةِ اللغةِ العربيةِ مِن كُلِّيَّاتِ الأزهرِ الشريفِ، وكانَت مناهِجُ الدِّراسَةِ فيهَا في ذلكَ الزّمانِ مِمّا يُغذّي المَلَكاتِ ويُنَمّي

(١) مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ٢٦٧.

(٢) المرجع السابق، الصحيفة نفسها.

المَواهِبِ"[1]، ولكي ينفِي أنَّ هذه المناهِجَ كانت مقتَصِرَةً على الدِّراسَةِ الأزهرِيَّةِ فقط، يُقَرِّرُ – في مَوضِعٍ آخر – أنَّ التعليمَ العامَّ أيضًا كان يدرُسُ هذه الكُتُبَ التي ذَكرَ أمثِلَةً منهَا بِقَولِهِ: "حينَ أَخَذَ التعليمُ شَكلَهُ الحديثَ فِي أوائِلِ هذا القَرنِ[2] وَوُضِعَت المناهِجُ لِتدريسِ مختَلَفِ العلومِ، بَرَزَت طائفَةٌ من كتُبِ النحوِ القديمَةِ تُدَرَّسُ من خلالِها هذِه المناهِجُ، وقد دارت هذهِ الكُتُبُ المقرَّرَةُ في الجمهورِ الأعظَمِ منها حولَ ابنِ مالِكٍ وابنِ هشامٍ؛ أعنِي شرحَ الألفِيَّةِ لابنِ عقيلٍ، وأوضَحَ المسالكِ إلى ألفِيَّةِ ابنِ مالِكٍ لابنِ هشامٍ، ومنهَجَ السالِكِ إلى ألفيَّةِ ابنِ مالِكٍ للأشمُونِيّ، مع كُتَبِ ابنِ هشامٍ الأُخرَى مثل قَطرِ النَّدَى وشُذُورِ الذَّهَب ومُغنِي اللبيبِ، إلى بعضِ الكُتُبِ الأُخرَى مثل شَرحِ المُفَصَّلِ لابنِ يعيش وبعض كُتُبِ الخِلافيَّاتِ، مثل الإنصافِ في مسائلِ الخلافِ لأبي البرَكاتِ الأنباريّ، فهذِهِ الكُتُبُ الأصيلَةُ التي كانَ النحوُ يُدَرَّسُ من خِلالِها ... ولا ينبَغي أن يُقالَ إنَّ هذا كانَ سِمَةَ التعليمِ الدِّينِيِّ الذي هو امتِدادٌ لحلقاتِ المَساجِدِ، والذي تَغلِبُ عليهِ العربيَّةُ كالّذي في الأزهرِ الشريفِ ودارِ العلومِ، فإنَّ المُتَتَبِّعَ تدريسَ النَّحوِ لتلامِيذِ المدارِسِ في التعليمِ العامِّ أو الأميرِيِّ يعلَمُ أنَّ الأزهَرَ الشريفَ كانَ مُوجِّهًا لتعليمِ النَّحوِ في المدارِسِ ومُهَيمِنًا عليهِ؛ فهذا الكتابُ الشهيرُ (الدُّروس النَّحويَّةُ) الذي أَلَّفَهُ الأساتِذَةُ حِفنِي ناصِف –وهو مُتَخَرِّجٌ في الأزهَرِ_ ومحمّد أفندي دياب، والشيخ مصطفى طَمُّوم، ومحمد أفندي صالِح، كُتِبَ عليهِ هذِهِ العِبارَةُ: "قَرَّرَت نِظارَةُ المعارِف العمُومِيَّةُ سنة

(١) عنوان المقال: الشيخ الشعراوي واللغة، نُشِرَ بمجلة الهلال، القاهرة، عدد فبراير ١٩٩٤م، وضمن مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي، صـ: ٢٨٠– ٢٩٢.

(٢) يقصد رحمه الله بدايات القرن العشرين.

١٩٠٤هـ طَبعَـهُ علـى نَفَقَتِهـا بعـدَ تصـدِيقِ شَـيخِ الأزهَـر". ولنتَأَمَّـلِ الكتُـبَ التـي كانـت مُقَـرَّرَةً علـى تلاميـذِ المـدارِسِ فـي تِلـكَ الأيـامِ: المِصـباح المُنيـر للفَيُّـومِيّ المتـوفّى سـنة ٧٠٠هـ، كُتِـبَ علـى طبعَتِـهِ الصَّـادِرَةِ سـنة ١٩٠٩م: "قَـرَّرَت نِظـارَةُ المعـارِف العمومِيَّـة طبـعَ هـذا الكتـابِ علـى نَفَقَتِهَـا واسـتِعماله بالمـدارسِ الأميريَّـة"، والـبُخلاء للجـاحِظِ، طبعـة خاصَّـة لتلاميـذِ المـدارِسَ الثانَوِيَّـةِ سـنة ١٩٣٨م، أصـدَرَهَا أحمـد العَوامري بـك، وعلـي الجـارم بـك، ونقـد النَّثـرِ المنسـوب لِقُدامَـةَ بـنِ جَعفَـر، مـن أدبـاء القـرن الرابـعِ الهجـريّ ... وقـد قرَّرَتـهُ وزارة المعـارفِ المصـريَّة لطُـلّابِ السـنَةِ الخامِسَـةِ التَّوجِيهِيَّـةِ، إلـى طائفَـةِ أُخـرَى مـن الكُتُـبِ المشـحونَةِ بالنصـوصِ مثـل: مجموعـة الـنَّظمِ والنَّثـرِ لعبد الله باشا فِكري، والمنتَخب من أدَبِ العَرَب"[١].

جـ - الاهـتِـمام بـمَـورُوثِـنـا الأدبـيِّ.

اتِّساقًا مـع مـا كـانَ يحـرصُ أُستاذُنا علـى أنْ يُنَبِّهنـا إليـهِ دائِمًـا مُشـافَهَةً مـن أنَّـهُ لا يُغنِـي كِتـابٌ عـن كِتـابٍ، وأنّ "المكتبـةَ العربيـةَ كتـابٌ واحِـدٌ" ومـا ذكـرَهُ فـي سـياقِ حديثِـهِ عـن إتقـانِ الشـيخِ الشـعراويِّ للعربيـة وهـو قولـه: "العربيَّـة عنـد أهـلِ العِلـمِ كتـابٌ واحِـدٌ"[٢] فَقَـد ظَهَـرَ اعتِنـاؤُهُ علـى نَحـوٍ خـاصٍّ بمؤلَّفـاتِ الجـاحِظِ عمومًـا، وكِتـابِ البَيـانِ والتَّبيـين علـى وجـهِ الخصـوصِ، وأبانَ عنِ السَّبِبِ في ذلكَ قائلَا:

"وقِـراءة الجـاحِظِ فـوقَ أنَّهـا تُمتِـعُ الوِجـدانَ، تُحَـرِّكُ العقـلَ وتَفـتَحُ أبوابًـا مـن النَّظَـرِ، وتسـتثيرُ دَفـائِنَ مـن الفِكـرِ... وقـراءةُ الجـاحِظِ إذا أُخِـذَت بِحَقِّهـا

(١) في اللغة والأدب: ٢/٤٩٩-٥٠١.

(٢) المرجع السابق: ٢٨٥.

قادَت إلى المكتبةِ العربية كلِّها، بفُنونِها وعلومِها المختَلفَةِ؛ إذ كان الجاحِظُ كثيرَ الإلمامِ بالعلوم العربيَّة لا يكادُ يشذُّ عنهُ منها شيءٌ، وبخاصَّةٍ في (رسائِلِهِ) التي لم تُؤْتَ ما تستَحِقُّهُ من الدرسِ لأن الناسَ شُغِلُوا عنها بكُتُبِهِ الأُخرَى: البيان والتبيين والحَيَوان والبُخلاء والعُثمانِيَّة"[1].

ثمَّ أفرَدَ مقالًا آخر بعنوان: " أَجمَل كِتابٍ في حياتِي: البَيان والتبيين للجاحِظ"[2] اختَتَمَهُ برَجاءٍ وجَّهَهُ إلى أساتِذَةِ العربيَّةِ بضرورَةِ الاهتِمامِ بمَورُوثِنا الأدبيِّ مِن كُتُبِ الجاحِظِ ممَّا يكونُ لهُ من أَثَرٍ في صناعَةِ المَلَكَةِ اللغَويَّةِ واستِوَائِها لدَى المتعلِّمَين بقولِهِ: "وبَعدُ، فَلَم يبقَ إلّا هذا الرّجاءُ الصَّادِقُ، أسُوقُهُ لِزُملائِنَا مُدَرِّسِي العربيةِ فِي كُلِّياتِ الجامِعاتِ ومَعَاهِدِهَا: أن يلتَفِتُوا التِفاتَةً جادَّةً إلى أَدَبِ الجَاحِظِ، وبخاصَّةٍ ذلِكَ الكتابُ: البَيان والتَّبيين، وأن يَجعَلُوا مِن نُصُوصِهِ نَصِيبًا مَفرُوضًا على تلامِيذِهِم؛ فَقَد استَقامَت بِهذا الكِتابِ ألسِنَةٌ، وارتَقَتْ علَيهِ أذواقٌ، واسْتَوَتْ بِهِ مَلَكاتٌ، وكَفَانَا إعراضًا وتَجَافِيًا عَن مَورُوثِنَا العَظِيمِ".

ويلفِتُ الطناحِيُّ أنظَارَ المُتَعَلِّمِينَ – فضلًا عن الأساتِذَةِ الذين يُوَجِّهُ إليهم اللَّومَ– إلى كُتُبِ الأدَبِ التي لا غِنًى عنها لِمَن أرادَ تحصيلَ المَلَكَةِ؛ مُؤَيِّدًا كلامَهُ بذِكرِ أمثِلَةٍ من الكتبِ التي نشأَ وتَرَبَّى عليها كِبارُ الأُدَباءِ المعاصِرِينَ؛ إذْ أفرَدَ مقالًا بعنوان: "معَ بدايَةِ العامِ الجدِيدِ مَنْ يَقرأُ هذِهِ

(١) في اللغة والأدب: ٢٦١.

(٢) نُشِرَ بمجلة الهلال، القاهرة، عدد سبتمبر ١٩٩٧م. وضمن مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ٥٢٢-٥٣١.

الكُتُب؟"[1] ذَكَرَ في مُفْتَتَحِهِ أنَّ الأدَبَ لازِمٌ للنَّحوِيِّ إقراءً وتدريسًا حتى يجِدَ لكلامِهِ سبيلًا ومَذهَبًا، ولِتَوجِيهِهِ مَقنَعًا وبلاغًا، وأشارَ إلى أنَّ زُعَماءَ التَّنويرِ قد تكَوَّنَت ملَكَتُهُم وتَغَذَّت على هذهِ الكُتُبِ؛ قالَ رحِمَهُ اللهُ:

"وَدَعْ عنكَ طَهَ حُسين والعَقَّادَ فإنَّ صِلَتَهُما بالكُتُبِ العربِيَّةِ معروفَةٌ، وتأمَّلْ ما ذَكَرَهُ عميدُ المسرَحِ العربِيِّ توفيقُ الحكيم في كتابِهِ (عصفورِ الشَّرقِ) من أنَّهُ كانَ يصطَحِبُ مَعَهُ عندَ زيارَتِهِ لباريس كتابَ (العقد الفريد) لابنِ عبد ربّه رفيقَ سَفرٍ وزَادَ مُغتَرِبٍ، وذَكَرَ إبراهيم عبد القادر المازنِيّ – وكان مِن أبرَعِ الناسِ في الترجمةِ عن الإنجليزِيَّةِ – ذَكَرَ لِخيرِ الدينِ الزِّركلِي أنَّهُ حَفِظَ في صِباهُ (الكامل) للمُبَرِّدِ غيبًا، يقول الزِّركلِي: "وكانَ ذلكَ سِرَّ الغِنَى في لُغَتِهِ"، وأبو فِهر محمود محمد شاكر قرَأَ لسانَ العَرَبِ كُلَّهُ وهو تلميذٌ بالثانَويّ، وكذلكَ قرأَ في الوقتِ نفسِهِ (الأغانِي) في طبعةِ الساسِي، وهي طبعةٌ غيرُ مشكُولَةٍ ولا مُحَقَّقة"[2].

وتَطَرَّقَ رحِمَهُ اللهُ إلى عِبارَةِ ابن خلدون الشائِعَةِ عن الكُتُبِ الأَربَعَةِ التي تُعَدُّ أصُولًا لعلمِ الأدبِ وهي قولُه: "وسمِعنا من شُيوخِنا أنَّ أُصولَ هذا الفَنِّ وأركانَهُ أربَعَةُ دَواوِين، وهي: أدب الكاتبِ لابنِ قُتيبَة، وكتاب الكامل للمُبَرِّد، وكتاب البيان والتبيين للجاحِظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغداديّ، وما سِوى هذه الأربعَةِ فَتَبَعٌ لها وفروعٌ عنها"[3]فأَثنَى على هذه

(١) نُشِرَ بمجلة الهلال، القاهرة، عدد أكتوبر ١٩٩٣م. وضمن مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ٢٥٩-٢٦٩.

(٢) مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ٢٦٠، وانظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م: ٧٢/١.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ١١٣٩/٣.

الكتُبِ التي أَوْلاها جِيلُهُ من الطَّلَبَةِ والأساتِذَةِ العنايَةَ الواجِبَةَ، ناعِيًا على الجيلِ الجديدِ من طلبَةِ العلمِ عدمَ الاهتمامِ بمُطالَعَةِ هذه الكتُبِ وغيرِها من أُصولِ المكتبةِ العربيةِ التي ذَكَرَ بعضَها، موجِّهًا اللَّومَ في الوقتِ نَفسِهِ للأساتِذَةِ؛ يقولُ رحمَهُ الله:

"ونَعَم، فقد أحسَنَ كُلَّ الإحسانِ مَنْ عَدَّ هذَهَ الكُتُبَ الأربَعَةَ أُصولَ علمِ الأدَبِ ... فَمَنْ حَصَّلَ هذِهِ الكُتُبَ، ثمَّ أطالَ الوقوفَ عِندَهَا والنَّظَرَ فيها فازَ بأوفَرِ الحَظِّ والنصِيبِ ... وهذه الكتُبُ كانت مُتاحَةً لنا في صَدْرِ شبابِنا، في دار الكُتُبِ المصريَّةِ ببابِ الخَلقِ، وفي مكتباتِها الفرعيَّةِ داخِلَ القاهِرَةِ وفي عواصِمِ الأقاليمِ، ثمَّ كانت تغُصُّ بِها مكتباتُ الكُلِّياتِ الجامِعيَّةِ، بل في كثيرٍ من مكتباتِ المدارِسِ الثانَويَّةِ، ثم كانت تلكَ الكتُبُ قريبَةً إلى عقُولِنا وقُلوبِنا بِذِكرِ أساتِذَتِنا لَها ونَقلِهِم عنهَا، وحَثِّهِم لنا عليها وإغرائِهِم بِها، ومُطالبَتِهِم إيَّانا باستِظهارِها؛ إذ كانوا يرونَ أنَّها أوعِيَةُ العِلمِ، ولا أوعِيَةَ غيرُها، وكذلكَ كانت مألوفَةً لنَا بإحالَةِ الأُدَباءِ والكُتَّابِ عليها في المجلَّاتِ والدَّوريَّاتِ الثقافِيَّةِ ... والآنَ جَفَّت الينابيعُ، وصَوَّحَ النَّبتُ؛ فَدارُ الكُتُبِ أصبَحَت كَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ، ومكتباتُ الكُلِّياتِ الجامِعيَّةِ تَطَايَرَت محتَوياتُها إلى بيوتِ بعضِ الأساتِذَةِ غنِيمَةً بارِدَةً وعارِيَةً غيرَ مُستَرَدَّةٍ، أمَّا تعامُلُ الأساتِذَةِ والكُتَّابِ مع هذِهِ الكُتُبِ فأنتَ تعرِفُهُ. وأسألُ طَلَبَتِي في السَّنَةِ النِّهائِيَّةِ (الليسانس) عن هذِهِ الكُتُبِ فلا أظفَرُ إلا بِصَبَابَةِ قَولٍ لا تَكادُ تتجاوَزُ اسمَ الكِتابِ، مع تخليطٍ كثيرٍ في بعضِ أسماءِ الكُتُبِ وأسماءِ أصحابِها، ولا تلوموهُم ولُومُوا أنفُسَكُم.

ثمَّ أعودُ إلى مكتَبَتِي وأُطَيلُ النَّظَرَ إلى قسمِ الأدَبِ منها، وأُكَرِّرُ سُؤالًا أعرِفُ ألَّا جوابَ لَهُ: مَن يقرأُ هذِهِ الكُتُبَ، كِبارَها وأوساطَها وصِغارَهَا؟ بدءًا

بالمفَضَّلِيَّاتِ والأصمَعِيَّاتِ، وانتِهاءً بالمِخْلاةِ والكَشكولِ للعامِلِيِّ، وقرونًا بينَ ذلِكَ كثيرًا، دواوين الشِّعرِ ومُختارات الأدَبِ والحماسات والأمالِي والمَجالِس، وكتب المعاني وكُتب الأمثالِ: تجارِبُ أُمَمٍ وعُقُولُ أقوامٍ استَودَعوها بُطونَ الكُتُبِ، وأَدَّتْها إلينا أَجيالٌ وفِيَّةٌ من الرُّواةِ والحَفَظَةِ والنُّسَّاخِ والمُحَقِّقِينَ، حَفِظُوها وصانُوها كما يصونُ كِرامُ الأبناءِ ودائِعَ الآباءِ"[1].

٢- مُراعاة المستوى التعليمي:

نَبَّهَ الطَّناحِيُّ في كثيرٍ من المواضِعِ إلى ضرورَةِ مُراعاةِ المستوَى التعليمِيِّ من حيثُ التَّدَرُّجُ في المُحتوَى العلمِيِّ الذي يُقَدَّمُ لمُتَعَلِّمِ العربيةِ في مراحلِ التَّعليمِ الأولى على وَجهِ الإجمالِ، ثُمَّ خَصَّ الدّرسَ النَّحوِيَّ والمُعجَمِيَّ والعَرُوضِيّ بالحديث في بعضِ المواضِعِ على نحوٍ خاصٍّ، وعابَ على بعضِ الأساتِذة ما يقومونَ بِه في قاعةِ الدَّرسِ من التَّعَرُّضِ لِقضَايا نحويَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ لا تتناسَبُ مع المرحَلَةِ التعليميةِ المُبَكِّرَةِ التي يمُرُّ بها الطلاب، دَاعِيًا إلى أن يُرْجَأَ ذلِكَ إلى مرحَلةٍ تالِيَةٍ حينَ يكونُ الطَّالِبُ قد اتَّسَعَت مَدَارِكُهُ، وألَمَّ بأصولِ العِلمِ ومسائِلِهِ بعيدًا عن خِلافاتِ العلَماءِ وتعقيداتِهم؛ إذ يرى أنَّ ضرَرَ هذِه المسائلِ الخلافيةِ على الطالبِ يكُونُ أكثَرَ مِن نفعِها؛ وتؤدِّي ببعض الطُّلاب – وهُمْ في مُقتَبَلِ حياتِهِم التعليمية – إلى الاضطِرابِ والبَلبَلَةِ، وفي مُقابلِ ذلك أثنَى –رَحِمَهُ اللهُ– على صنيعِ بعضِ العُلَماءِ الذينَ اهتَمُّوا بمُراعاةِ هذا الجانبِ في مُؤَلَّفاتِهِم.

فَعلى سبيل الإجمالِ يستَنكِرُ رَحِمَهُ اللهُ ما يقومُ بِه بعضُ الأساتِذَةِ من التَّعَرُّضِ لِنَقدِ العلومِ العربيَّةِ في دُرُوسِهم قبلَ أنْ يحصِّلَ الطلابُ القَدرَ الكافي من أُصولِ

(١) مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ٢٦١-٢٦٢.

هذِهِ العُلومِ قائِلًا : "أَمَّا مَا يندَفِعُ فيهِ بَعضُ أساتِذَتِنا وزُملائِنا الجامعيين مِن نَقدٍ لعلومِ الأُمَّةِ ومَعارِفِها، مَعَ ما يَصْحَبُ ذلكَ أحيانًا من السُّخريَةِ والاستِهزاءِ، فهوَ مِمَّا لا يَصِحُّ ولا يستَقِيمُ، ونَعم إنَّ في تراثِنا مواضِعَ للنَّقدِ والتَّتَبُّعِ، وهو منقودٌ من داخِلِهِ مِن قديمٍ؛ فقد اعتُرِضَ على سيبَوَيه إمَامِ النُّحاةِ ونُقِدَ واستُدرِكَ علَيهِ، وكذلك تَعَرَّضَ البُخاريُّ للنّقدِ والتّصحِيحِ ... وليسَ أَحَدٌ إلّا وأنتَ آخِذٌ مِن قَولِهِ وتارِكٌ – على ما قالَهُ يونسُ بنُ حبيب– ولكنَّ هذه الأمورَ ينبَغي أن تَنَحَّى عن طَلَبَةِ العِلمِ في أوّلِ أيّامِهِم، وتُؤَجَّل إلى أن يشتَدَّ عُودُهُم، ويُستَحْصَدَ زَرعُهُم، حتّى يستَطيعوا أن يميزوا الخبيثَ من الطَّيِّبِ"(١).

أمَّا فيما يتعلَّقُ بالدّرسِ النَّحويِّ فقد ذَكَرَ أنَّ الذي يتعرَّضُ لنَقدِ الفِكرِ النَّحويِّ مِن الأساتذةِ ينبغي عليه أولًا أن يكونَ مُحِيطًا بهذا العِلمِ جامِعًا لمصادِرِهِ، حتى يكُونَ بمَأمَنٍ من العَثَارِ، وأنَّ الذي انتهَى إليه بعضُ أساتِذَةِ النَّحوِ من نقدٍ للفِكرِ النّحويِّ كانَ ينبَغِي أن يظَلَّ في مَجثَمِهِ من شهاداتِهِم الجامعيةِ العُليا، أو بحُوثِهم التي يعدُّونَها لترقياتِهم العلميَّةِ، أمَّا إلقاءُ هذه الآراءِ على الطلبَةِ في المرحلَةِ الجامعيةِ الأولى فهو ما يُحدِثُ عندَهُم بلبَلَةً خطِيرَةً، مُنَبِّهًا على أنّ الغايَةَ من تعليمِ النَّحوِ أن يتَكَلَّمَ الطالِبُ كلامًا صحيحًا، ويكتُبَ كتابَةً صحيحَةً، ثمَّ يكونُ قادِرًا على قِراءَةِ تُراثِهِ وفَهمِهِ وتَفهِيمِهِ، أمّا مَا وراءَ ذلِكَ من نَقدٍ وتَقويمٍ فينبَغِي ألَّا يُؤبَهُ لَهُ، لا سيما في هذه المرحلة الجامِعيَّةِ الأُولَى(٢)؛ إذْ إنَّ أصُولَ علمِ النَّحوِ فقط هي التي ينبغي أن تُقَدَّمَ لطالِبِ العربيَّةِ في مرحلتِهِ الجامعيَّةِ الأولى (الليسانس)، ولا يُعَرَّجُ بِهِ إلى قضايا نقدِ النَّحوِ أو تقويمِه ونقضِ قواعِدِه؛ تلكَ التي ينبغي أن تُرجَأَ إلى مرحلةِ الدراساتِ العليا بعدما يكونُ قد أحاطَ بأصولِ العِلمِ وأركانِه، ناعِيًا صَنِيعَ

(١) مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ٥٠١.

(٢) انظُر في اللغة والأدب: ٢/ ٥١٤–٥١٥.

بعضِ الأساتذَةِ الذينَ يُعَوِّلُونَ في دُروسِهِم لطُلابِ المرحَلَةِ الجامعيَّةِ الأُولى على نَقدِ القاعِدَةِ النَّحويَّةِ، أو التَّعرُّضِ لدراسَةِ المسائلِ الخلافِيَّةِ مِمَّا يكونُ لهُ من أثَرٍ سلبيٍّ على مُتَعَلِّمِ العربيَّةِ؛ يقول رحمه الله:

"إنَّ هذا الذي انتهى إليهِ بعضُ أساتِذَةِ النّحوِ مِن نَقدِ للفِكرِ النَّحويِّ كانَ ينبغي أن يظَلَّ في مَجثَمِهِ من شهاداتِهِم الجامعيَّةِ العُليا (الماجستير والدكتوراه) أو بُحوثِهم التي يعدُّونَها لترقياتِهم العلميةِ، لكنهم يُلقُونَ آراءَهُم هذهِ على طَلَبَتِهم في المرحلةِ الجامعيةِ الأولى (السنوات الأربع) فيُحدِثُونَ عِندَهم بلبَلَةً خطيرَةً، ويُحَدِّثُنا بعضُ هؤلاءِ الطَّلَبَةِ أنَّ أستاذًا يُخَصِّصُ نِصفَ المحاضَرَةِ لشَرحِ القاعِدَةِ النَّحويَّةِ، ويَصرِفُ النِّصفَ الآخَرَ لِنَقدِ ونَقْضِ هذهِ القاعِدَةِ، وبهذا يفرِضُ الأستاذُ على طلَبَتِهِ وِجهَةَ نَظَرٍ خَاصَّةً ربَّما لا تَثْبُتُ أمامَ النَّظَرِ الصحيحِ، وإنَّ الواجِبَ على الأساتِذَةِ في هذه المرحَلَةِ من التعليمِ أن يُعَلِّمُوا طَلَبَتَهُم أُصُولَ العِلمِ ليسَ غَير"[1].

وبعد أن يَذكُرَ –رحِمَهُ اللهُ– أكثرَ من مثالٍ على أنَّ نقدَ النحوِ قديمٌ وأنَّ تُراثَنا كُلَّهُ منقودٌ مِن داخِلِه، يؤكِّدُ على أنَّ تكليفَ الطلَّابِ ما لا يُطيقونَ يكونُ ضَرَرُهُ أكثَرَ من نَفعِهِ قائِلًا: "على أنَّهُ لا يَصِحُّ بِحالٍ أن نَكشِفَ لِصِغارِ الطَّلَبَةِ وهُم في هذِهِ المرحَلَةِ الجامِعِيَّةِ الأُولَى عن أبوابِ النَّقدِ هذِهِ وأن ندُلَّهُم علَيهَا، فإنَّ مَدَارِكَهُم تَقصُرُ عن إدراكِ تِلكَ المرامِي البعيدَةِ، فضلًا عَمَّا يُحدِثُهُ ذلِكَ في نُفُوسِهِم من زَلزَلَةٍ وبَلبَلَةٍ قد تُزَهِّدُهُم في العِلمِ كُلِّهِ"[2].

فَلِكُلِّ مرحَلَةٍ تعليميَّةٍ ما يُناسِبُها من الكُتُبِ التي تُساعِدُ على تَكوينِ الملكَةِ اللُّغوِيَّةِ والأخذِ بيَدِ المُتَعَلِّم للبِناءِ على ما سَبَقَ تحصِيلُه والاستِفادَةِ من الموروثِ

(١) في اللغة والأدب: ٢/٥١٤-٥١٥.

(٢) المرجع السابق: ٢/٥١٧.

العِلميِّ على النّحوِ المنشُودِ، يقولُ – رحِمَهُ اللهُ – في موضِعٍ آخَر: "ونَحنُ لا نَطلُبُ مِن شادٍ مُبتَدِئٍ أن يعكُفَ على كِتابِ الإنصافِ في مَسائِلِ الخِلافِ لأبي البركاتِ الأنباريِّ؛ فهذا وأشباهُهُ يأتي في مرحَلَةٍ لاحِقَةٍ، حِينَ يُتاحُ لهذا الطالِبِ أن يسيرَ في طريقِ الدِّراساتِ العليا النَّحويةِ"(١).

كما تَطَرَّقَ –رَحِمهُ اللهُ– إلى الدَّرسِ المُعْجَمِيِّ مُنَبِّهًا على ضرُورَةِ مُراعاةِ المرحَلَةِ التعليمية التي يَمُرُّ بِها الطالِبُ وأن يُقَدَّمَ لهُ ما يُناسِبُ مستواهُ بشكلٍ تطبيقِيٍّ؛ ويكونُ ذلكَ بمُدارَسَةِ المعاجِمِ المختلفة والبحثِ فيها بعيدًا عن المآخِذِ التِي تُوَجَّهُ إليهَا، وهو ما يَحسُنُ أن يُرجَأَ إلى مرحلةٍ تاليةٍ وهي مرحلةُ التخصُّصِ أو الدِّراساتِ العليا، يقولُ: "ومَا أحْرَانَا أَنْ نَدفَعَ أبناءَنا في كلِّيّاتِ الدراساتِ العربيةِ والإسلاميةِ إلى قراءةِ المَعاجِمِ، وكَثرَةِ التَّفتيشِ فيها، والصَّبرِ عليها، بَدَلًا من وقوفِنا بِهم عندَ حدودِ تِلكَ الدراساتِ النَّظَرِيَّةِ التي تتناولُ نشأَةَ المُعجَمِ ومَدارِسها، ثمَّ تنتَقِلُ إلى ذِكرِ عُيُوبِ المعجَمِ العربِيِّ، ولئِنْ سَلَّمنَا بِبَعضِ هذهِ العُيُوبِ فإنها ممّا لا ينبَغِي أنْ تُعرَضَ على طالِبِ العلمِ في مراحِلِهِ الأولَى، بل يُؤَجَّلُ ذلِكَ وأشباهُهُ إلى مراحِلِ الدراساتِ العُليَا"(٢).

أمَّا في الدَّرسِ العَروضي فقد اسْتَنكَرَ شَكوَى بَعضِ المُعاصِرينَ من صعُوبَتِهِ إجمالًا، ومن صعُوبَةِ مُصطَلَحَاتِهِ على وجه الخصوصِ، مُفَنِّدًا شَكواهُم بِقَولِهِ: "وليسَ العَروضُ عِلمًا صَعبًا عَسِرًا طِلابُهُ، كما يلهَجُ بهِ أهلُ زمانِنا، وكما يكتبُهُ بعضُ زُملائِنا الجامِعِيِّينَ في مُقَدِّماتِ تآليفِهِم وتحقيقاتِهم العَروضِيَّةِ، وإنِّي لأَعجَبُ لهُم، كيف يُصَعِّبُونَ عِلمًا ثُمَّ يطلُبونَ إلى تلاميذِهِم مَعرِفَتَهُ؟ أتُبَغِّضُ إلَيَّ طعامًا ثُمَّ

(١) في اللغة والأدب: ٢/٥٤١.

(٢) مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ١٨٢.

تدعُونِي إلى أَكلِهِ؟! العَروضُ علمٌ شَأنُهُ شأنُ سائرِ العُلومِ لا بُدَّ أنْ يُؤْخَذَ لَهُ أخذَهُ، ويُتَلَقَّى بالجِدِّ والصَّرامَةِ، وليس العَروضُ بأَشَقّ مِن علمٍ مثل الصَّرفِ، أو القراءاتِ (رِوايَةً ودِرايَةً)، أو أُصُولِ الفِقْه"[1].

وكَمَا ذَكَرَ رِحِمَهُ اللهُ أنّ الغايَةَ من تعليمِ النَّحوِ الكلامُ الصحيحُ والكتابَةُ الصحيحَةُ، يَرُدُّ على مَن يَدَّعي صُعوبَةَ المُصطَلَحاتِ العَروضِيَّةِ بأنَّ عِلمَ العَروضِ – شأنَ غيرِهِ من العلومِ– ليسَ مصطَلَحاتٍ فَحَسب، بل الغايةُ من دِراسَتِهِ تكوُّنُ المَلَكَةِ العروضِيَّةِ بِمعرِفَةِ الأوزانِ والبحورِ الشعريَّةِ والتمييزِ بينِها، أَمَّا المصطَلَحاتُ فتُرجَأُ إلى مرحَلَةٍ لاحِقَةٍ؛ إذ يقول: "وعلى فَرضِ التَّسليمِ بصُعُوبَةِ تِلكَ المُصْطَلَحاتِ وعُسرِها، فإنها ليست وحدَها علمَ العروضِ، وهل العَروضُ مُصطَلَحاتٌ فقط؟ إنَّ العِنايَةَ بتِلكَ المُصطَلَحاتِ إنَّما تأتي في مرحَلَةٍ تالِيَةٍ بعدَ معرِفَةِ المُهِمِّ الأعظَمِ، وهوَ التَّنَبُّهُ لِلوَزْنِ والنَّغَمِ، ومَعرِفَةِ قَواعِدِ تقطِيعِ الأبياتِ، والتَّمييزِ بينَ بَحرٍ وبَحْرٍ، والفِطنَةِ لِضُروبِ الإيقاعِ المختلفةِ، وما قد يطرأُ عليها من اضطرابٍ أو خَلَلٍ، وتنمِيَةِ الحِسِّ النَّغَمِيّ لإدراكِ العلائقِ بينَ البحورِ المتشابِهَةِ"[2].

وفي هذا السياقِ فَرَّقَ الطَّناحِيُّ –أجزَلَ اللهُ مَثُوبَتَه– بينَ النّحوِ التعليميّ الذي يُخَصَّصُ لتعليمِ النَّحوِ للناشِئَةِ والمُبتَدِئين،الذي عَبَّرَ عنهُ مَرَّةً بالنحوِ الوَظِيفِيِّ، ومَرَّةً بالنَّحوِ التعليميِّ، مُنَوِّهًا بإدراكِ القُدَماءِ للتيسيرِ وتخصيصِهم كُتُبًا للنّاشِئَة، وغيرِهِ مِمَّا يُطيقُهُ الذين ارتَقَوا في تعلُّمِ النَّحوِ وساروا فيه خطواتٍ وهو ما أطلَق عليهِ نحوَ التّراكِيبِ، وكان ذلكَ في مَوضِعَينِ من مُؤَلَّفاتِه؛ أحَدهما في مقدِّمَةِ

(١) في اللغة والأدب: ١/١٧٧.

(٢) المرجع السابق: ١/١٨٠.

فَهارِسِ كتابِ الأصولِ في النّحوِ لأبي بكرٍ بنِ السرَّاجِ (٣١٦هـ)؛ فبعدَ أن ذَكَرَ ثَنَاءَ القُدَماءِ على تأليفِ الكِتابِ وحُسنِ ترتيبِه يقول :

"نَقِفُ في الكتابِ عندَ نُقطَتَينِ جديرتينِ بالتّأَمُّلِ في تلكَ المرحلةِ المتقدِّمَةِ في التصنيفِ النّحويّ:

أُولاهُما: الفَصلُ الواضِحُ بينَ لونَينِ من الدّرسِ النَّحويِّ؛ يعْمَدُ أوَّلُهُما إلى معرِفَةِ الطُّرُقِ التي يُتَوَصَّلُ بِها إلى معرِفَةِ كلامِ العَرَبِ، والجَريِ على سَنَنِهَا في التعبيرِ إفرادًا وتركيبًا، مِمَّا يجوزُ أن نُطلِقَ عليهِ النَّحوَ الوظيفِيّ، ويَخلُصُ اللونُ الثّاني إلى الكشفِ عن القواعِدِ الكُلِّيَّةِ التي تُرَدُّ إليها مَسائِلُ النَّحوِ والصَّرْفِ، طَلَبًا لِمعرِفَةِ أُصُولِ هذِهِ اللغَةِ وفَضْلِها على سائِرِ اللغاتِ، وهذا ما أدارَ عليهِ أبو الفَتحِ بنِ جِنِّي أبوابَ كتابِهِ العظيمِ (الخَصائص)...

النّقطةُ الثانيةُ: أنَّ هذا الكتابَ يحمِلُ سِماتٍ واضِحَةً للتيسيرِ، ويَكشِفُ عن نَوازِعَ مُبَكِّرَةٍ عندَ النُّحاةِ الأوائلِ لِلفَصْلِ أيضًا في الدّرسِ النّحويِّ بينَ ما هوَ ضَروريٌّ للشَّادِي المُبتَدِئِ، وبينَ ما يُطِيقُهُ العالِمُ المُتَمَكِّنُ، الذي سارَ في دَرسِ النَّحوِ خُطواتٍ وارتَقَى فِيهِ دَرَجاتٍ"[1]، وبعدَ أن يُؤيِّدَ مَا ذكرَهُ بعِباراتِ ابنِ السَّراجِ نفسِهِ يقول: " ولَعَلّ في هذا الذي ذَكَرتُ مَقنَعًا وبلاغًا للذينَ يُهاجِمونَ النُّحاةَ الأوائلَ ويرمونهُم بالتعقيدِ والعُسْرِ، والاشتِغالِ بالخلافِيَّاتِ، أَن يُراجِعوا أحكامَهُم في ضَوءِ هذا الكِتابِ، وفي غيرِهِ من النصُوصِ النحويَّةِ الأُولَى التي لم تَحْظَ بالتَّأَمُّلِ والدَّرْسِ، ولَعَلَّ في هذا

(١) فهارس كتاب الأصول في النحو لأبي بكر بن السراج، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦م:٤-٥.

الـذي ذَكَـرتُ أيضًـا دلـيلًا علـى أنَّ النَّحـوَ التّعليمـيَّ بَـدَأَ مُبَكِّـرًا، وأنَّ التَّصـنِيفَ فِيهِ شَغَلَ بالَ العُلَماءِ الأوائِلِ"(١).

وقـد أوضَـحَ – رحِمَـهُ اللهُ – فـي مَوضِـعٍ آخَـر الفـرقَ بـينَ نحـوِ الصَّـنعَةِ بمفهُومِـهِ المحـدُود بالتعريفـاتِ والحُـدودِ والعِلَـلِ النّحويَّـة والتقسـيمات العقليـة، ونحـوِ الفِطـرَةِ أو نحـو التـراكيب بمفهُومِـهِ الرحْـبِ المُترامِـي الأطـراف حـين قـالَ: "نَعَـمْ، إنَّ فـي النَّحـوِ منـاطِقَ فَـنٍّ وإبـداعٍ، فـإذا أنـت ترَكـتَ نحـوَ الصَّـنعَةِ المتمَثِّـلِ فـي التعريفـاتِ والحُـدُود والقوالِـبِ والنِّظـامِ والاطِّـراد ومـا تَقتَضِـيهِ القِسـمَةُ العَقلِيَّـةُ التـي تفتَـرِضُ أشـياء لا وُجـودَ لَهـا؛ لاسـتِواءِ الصَّـنعةِ النَّحويَّـةِ لـيسَ غيـرَ وسـائِرَ هـذهِ الأمـورِ ... إذا أنـتَ ترَكـتَ هـذَا كُلَّـهُ وجِئـتَ إلـى نحـوِ التّراكِيـبِ وبنـاءِ الجُملَـةِ العربيَّـةِ، وجَـدتَ ذلِـكَ النَّحـوَ العربـيَّ الشَّـامِخَ، القـائِمَ علـى رِعايَـةِ المعـانِي والـدّلالاتِ التـي خرجَـت بـالنّحوِ مـن دائـرَةِ القَوالِـبِ والنِّظـامِ والاطِّـرادِ إلـى العلاقـاتِ بـينَ أجـزاءِ الكـلامِ وتِلـكَ المَنـادِحِ الواسِـعَةِ مـن التقـديم والتـأخير، والحَـذفِ والتقـدير، والإضْـمارِ والفَصـلِ، والاتِّسـاعِ والحَمـلِ، والتضـمينِ والجِـوار، والاسـتِغناءِ ورعايـةِ الظّـاهِر، واعتِبـارِ المَحَـلِّ، ومعـاني الحـروفِ والأدَواتِ ووقـوعِ بعضِـها موقِـعَ بعـضٍ، وتَبـادُلِ وَظـائِفِ الأبنِيَـةِ، ثُـمَّ لُغَة الشِّعر التي يُسمُّونَها الضَّرائِر"(٢).

ويزيـد هـذِهِ التَّفرِقَـةَ وضـوحًا مُلْتمِسًـا العُـذْرَ لِمـن يضِـيقُ بنَحـوِ الصَّـنعةِ بقولِـهِ: "وَضَـحَ إذَن أنَّ النَحـوَ نَحْـوَانِ: نَحـو الصَّـنعَةِ، ونحـو التراكيـب؛ فـالأوّلُ هـو النِّظـام والقواعـد والتعريفـات والقَوالِـب، ومـا صَـحِبَ ذلـكَ كُلَّـهُ مـن العِلَّـةِ

(١) فهارس كتاب الأصول في النحو: ٦.

(٢) مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ٤٤٠-٤٤١.

والعامِـلِ، ولِـبَعْضِ خَلْـقِ اللهِ أن يَضِـيقُوا بـالنَحوِ علـى هـذا الوَصْـفِ؛ لأنَّ فيـهِ أحيانًـا مَـا يَكِـدُّ الـذِّهنَ ويَصـدَعُ الـرَّأسَ، مَـعَ مـا فـي بعـضِ النَّحـويّينَ قـدِيمًا وحـديثًا مِـن ثِقَـلٍ وغَثاثَـة، ولكنـهُ علـى كُـلِّ حـالٍ عِلـمٌ ينبغـي أن يُعـرَفَ ويُحـاطَ بِـهِ. والنّحـو الثـاني نحـو التراكيـب؛ وهـو الـذي اتَّكَـأَ علـى النِّظـامِ وانتقَـلَ منـهُ إلـى إدراكِ العلائِـقِ بـينَ أجـزاء الكـلامِ، وتلـكَ المنـادِحُ الواسِـعَةُ التـي ذكرتُهـا مِـن قبـل، وهـذا تسـتطيعُ أن تُدرِكَـهُ مِـن أوّلِ كتـاب سـيبويهِ إلـى النّحـوِ الـوافي لعبّـاس حسـن، علـى تفـاوتٍ بـين النحـاةِ فـي ذلـكَ، وتسـتطيعُ أن تُدرِكَـهُ أيضًـا فـي كُتُـبِ أعاريـبِ القُـرآنِ وتوجيـه القـراءاتِ السَّـبْعِ والعَشـرِ والشَّـواذِّ، وشـروحِ الحديثِ النَّبَوِيِّ وفي شروحِ الشِّعرِ وكُتُبِ الأمثالِ وعلومِ البلاغَةِ"[1].

أَمّـا فـي ميـدَانِ تحقِيـقِ التـرّاثِ فيُفَـرِّقُ بـين الصَّـنعَةِ التِـي قَـد يعرِفُهَـا كثيـرونُ بـلا تَمـايُزٍ لأحَـدٍ علـى آخـر، وبـينَ العِلـمِ الـذِي لا يعقِلُـهُ إلّا العـالِمُون بأُصُـولِ هـذا الفَـنِّ والمُتَمَكِّنُـونَ مِـن أدَواتِـهِ؛ إذ افتـتَحَ مَقَـالَا بعنـوانِ: "محمـود محمـد شـاكِر ومنهَجـه فـي تحقيـق التّـراثِ"[2] بِبَيـانِ هـذا الفَـرقِ قـائِلًا: "تَحقِيـقُ النُّصُـوصِ عِلـمٌ لَـهُ قَوانِينُـهُ وأعرافُـهُ ومُصطَلَحاتُهُ وأدَواتُـهُ، ولَـهَ جانِبـانِ: جانِـبُ الصَّـنعَةِ، وجانِـبُ العِلـمِ؛ فأمَّـا جانِـبُ الصَّـنعَةِ فَهـوَ مَـا يَتَّصِـلُ بِجَمْـعِ النُّسَـخِ المخطُوطَـةِ لِلكِتـابِ المُـرادِ تحقِيقُـهُ، والمُوازَنَـةِ بينَهـا، واختِيـارِ النُّسـخَةِ الأُمِّ، ثُـمَّ مـا يكـونُ بعـدَ ذلِـكَ مـن تَوثِيـقِ عُنـوانِ المَخطُـوطِ واسـمِ المُؤلِّـفِ ونِسـبَةِ المخطُـوطِ إلَيـهِ، ونَسـخِه والتّعليـقِ علَيـهِ، وتخـريجِ شـواهِدِهِ وتوثِيـقِ نُقُولِـهِ، وصُـنعِ الفَهـارِسِ الفَنِّيَّـةِ اللازِمَـة. فهـذا كُلُّـهُ جانِـبُ الصَّـنعَةِ الـذي يسـتَوِي فيـهِ

(١) مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ٤٤٤-٤٤٥.

(٢) نُشِـرَ بمجلـة الهـلال، القـاهرة، عـدد فبرايـر ١٩٩٧م. وضـمن مَقـالات العلّامـة الـدكتور محمود محمد الطناحي: ٤٧٨-٤٩٢، وانظر: في اللغة والأدب: ٢٤٢/١ و٨٣٩/٢.

النَّاسُ جميعًا، ولا يكادُ يفضُلُ أحَدٌ أحدًا فِيهِ، إلا بما يكونُ من الوَفاءِ بهذِهِ النِّقاطِ أو التقصِيرِ فيهَا.

وأَمَّا جانِبُ العِلمِ في تَحقِيقِ النُّصُوصِ فهُوَ الغايَةُ التي ليسَ وراءَها غايَةٌ، وهُوَ المَطلَبُ الكبيرُ الذي ينبغِي أن تُصرَفَ إلَيهِ الهِمَمُ، وتُبذَلَ فيهِ الجُهُودُ، وَلاءً لهذا التُّراثِ العَرِيقِ، وكَشفًا لمسيرَتِنَا الفِكرِيَّةِ خِلالَ هذهِ الأزمانِ المتطاوِلَةِ، وعُدَّةُ المُحَقِّقِ فِي ذلِكَ هِيَ مَعرِفَةُ الكُتُبِ العربيَّةِ في كُلِّ فَنٍّ، وحُسن التَّعامُلِ مَعَها والإفادَة مِنها؛ لأنَّهُ فِي كُلِّ خُطوَةٍ يخطُوها مُطالَبٌ بتَوثِيقِ كُلِّ نَقلٍ وتحرِيرِ كُلِّ قَضِيَّةٍ، بل إنَّ المُحَقِّقَ الجادَّ قد يبذُلُ جهدًا مُضنِيًا لا يظهَرُ في حاشِيَةٍ أو تعلِيقٍ، وذلكَ حينَ يُرِيدُ الاطْمِئنانَ إلى سلامَةِ النَّصِّ واتِّسَاقِهُ".

المبحث الثاني

عوامِلُ ضَعْفِ المَلَكَةِ اللغوية في فِكرِ الطناحي

كان للدكتور الطناحي رأيُهُ الواضِحُ في الأسبابِ التي تؤَدِّي إلى ضعفِ الملكةِ اللغويَّةِ عند الطُّلابِ؛ إذْ أجْمَلَهَا في أربَعَةِ أسبابٍ هِي:

١- هَجْر الكتابِ القديمِ.

٢- طُغيان المناهِجِ الغربيَّةِ في دَرسِ النّحوِ واللغَةِ.

٣- الاشتِغال بالنَّظرِيَّةِ واجتِواء التَّطبيق.

٤- إهمال جوانبَ ضروريةٍ في تعليمِ النّحوِ والعربيّة.

غَيرَ أنَّهُ نَصَّ على أَنَّ هذهِ الأسبابَ الأربَعَةَ تَرجِعُ في حقيقتها إلى سببٍ واحِدٍ هو: نَبذ التُّراثِ والانسِلاخ منه، والهُزء بِرُمُوزِهِ، والسُّخرية مِن أشياخِهِ، وذكرَ أنَّهُ نَثَرَها على أربعةِ أسبابٍ ليسهُلَ إيضاحُها والكشفُ عنها، ثمّ أفرَدَ حديثًا لكلِّ سَبَبٍ مِنها[1].

١- هَجْر الكتابِ القديمِ.

ذَكَرَ الدكتور الطناحي أنَّ هَجرَ الكتابِ القديمِ يأتي في المقامِ الأوَّلِ من العوامل التي أدَّت إلى ضعفِ المَلَكَةِ اللغوِيَّةِ عِندَ الطَّالِبِ لأنَّ هذا في رأيهِ أساسُ البلاءِ ومَدخَلُهُ، وأنَّ النتيجَةَ المُترَتِّبَةَ على إهمَالِ الكتابِ القديمِ والاستِعاضةِ عنْهُ بالكتبِ والمذَكِّراتِ الحديثةِ أو تلخيص الكتُبِ القديمَةِ تَكونُ الجَهلَ المُطبِقَ، يقولُ رحِمَهُ الله:

(١) انظر في اللغة والأدب: ٢/٥٠٦-٥٣٧.

"لقد حِيلَ بينَ طَلَبَةِ العِلمِ والكتابِ القديمِ، وهذا أساسُ البلاءِ ومَدخَلُه، ولن يُغنِيَ الجامعيينَ وعَلَماءَ التربيَةِ تَلَمُّسُ أسبابٍ أُخرَى يردُّونَ إليها ضَعفَ مستَوى الطُّلابِ. إنَّ هَجرَ الكتابِ القديمِ –وهو وِعاءُ العِلمِ– والاستِعاضَةَ عنهُ بالمُذَكِّراتِ والمُختَصَراتِ حَجَبَ عن هذا الجِيلِ كُوَى النُّورِ، وحَلَّأَهُم عن موارِدِ العِلمِ، وكانَ من أخطَرِ الأمورِ رَدُّ ذلِكَ بالكَيدِ وبالمَكرِ إلى التيسيرِ والتّسهيلِ. ونَعم فقد تَمَّ لِلقومِ ما أرادُوا، ولكن كانَ ماذا؟ كانَ الجَهلُ المُطبِقُ؛ إنَّ هؤلاءِ الذينَ تَصِفُونَهُم بالجَهلِ والضَّعفِ هُم نِتاجُ المُذَكِّراتِ والمُختَصَراتِ، والتَّعصِيرِ والتَّحديثِ (أي عرض النَّحوِ بأسلوبٍ عَصرِيٍّ حديثٍ)"[1].

ويؤكِّدُ في مَوضِعٍ آخر على الدَّورِ الأساسِ للمُعَلِّمِ في الأخذِ بيَدِ طُلَّابِهِ إلى مُدَارَسَةِ هذهِ الكُتُبِ ومُعَايَشَةِ المُتُونِ نفسِها بعيدًا عن الاختِصارِ والتَّلخيصِ؛ فبعدَ أن ذَكَرَ طائفَةً من كُتُبِ النَّحوِ القديمةِ التي كانت تُدَرَّسُ في أوائلِ القرنِ العشرين مثل كُتُب ابنِ مالكٍ وابنِ هشامٍ يقول: "وكانت وظيفةُ مُعَلِّمِ النَّحوِ في تلكَ الأيامِ أن يَسلُكَ بطَلَبَتِهِ دُروبَ هذهِ الكُتُبِ، ويخوضَ بهم لُجَجَهَا، ولم يكُن مأذُونًا لَهُ أن يُلَخِّصَ شيئًا من هذهِ الكُتُبِ بقَلَمِهِ، أو يُؤدِّيَها بلسانٍ غيرِ اللسانِ الذي كُتِبَت به، ولقد تخَرَّجَ الجِيلُ العظيمُ من نُحاةِ ولُغَوِيِّي مِصرَ والبُلدانِ العربية الأخرى من هذهِ المَدرَسَةِ: مدرسةِ النصوصِ والكتابِ القديمِ، وهو ما أُسَمِّيهِ: جيلَ المُتونِ والحَفَظَة"[2].

وذَكَرَ أنَّ تَدريسَ النَّحوِ من خِلالِ الكِتابِ القديمِ يفتَحُ للطَّالِبِ أبوابًا من المعَارِفِ تأتِي من خلالِ الشاهِدِ النَّحويِّ كالغَنيمَةِ البارِدَةِ، مُؤيِّدًا كلامَهُ بِذِكرِ طائِفَةٍ

(١) كتاب الشعر، أو شرح الأبيات مشكلة الإعراب، مقدمة التحقيق: ٣٨.

(٢) في اللغة والأدب: ٢/٥٠٠، وانظر: المقالات: ١٤٠.

من الشواهِدِ التُّراثِيَّةِ التي حَفِظَها هو وأبناءُ جِيلِهِ وكانُوا يتَباهَونَ بِها على أقرانِهِم من طُلابِ المدَارِسِ الأميرِيَّةِ، فكَانَ للشاهِدِ الشِّعرِيِّ أثَرُهُ في استِقرارِ أوزانِ الشِّعرِ وأنغَامِهِ، كمَا كانَ للشَّاهِدِ القُرآنِيِّ أَثَرُهُ الضَّخمُ في تثبيتِ القاعِدَةِ اللغَوِيَّةِ والنَّحوِيَّةِ وتَمكينِها في النُّفُوسِ، لاسِيَّما إذَا أُتِيحَ لهذِهِ الشَّواهِدِ المُعَلِّمُ البَصِيرُ بالمَكتَبَةِ العربيَّةِ، العليمُ بمُدَاخلاتِها الحافِلَةِ بالغَرائِبِ والعَجائبِ، والقادِرُ على لَمحِ الأشباهِ وَرَصْدِ النَّظائِرِ على حَدِّ قولِهِ رحِمَهُ الله.

٢- طُغيان المناهِجِ الغربيَّةِ في دَرسِ النّحوِ واللغَةِ:

أمَّا عَن طُغيانِ المناهِجِ الغربيَّةِ في دَرسِ النّحوِ واللغَةِ[١]، فَذَكَرَ أنَّ أساتِذَةَ العربيةِ الذينَ ابْتُعِثُوا إلى البلادِ الأجنبيَّةِ عادُوا بِزادٍ وفيرٍ من النَّظرِيَّاتِ الغربِيَّةِ في علمِ اللغةِ والتراكيبِ والصوتيَّاتِ، وقسَّمَهُم –رحِمهُ اللهُ– إلى طائفتَين: طائفة لزِمَت القصدَ والاعتِدالَ ودرَّسُوا النحوَ وفق المَنهَجِ القديمِ معَ بعضِ الإضاءاتِ الحديثَةِ، وتركوا أفكارَهُم الخاصَّةَ باللغَةِ والنَّحوِ مِمَّا دَرَسُوهُ في الخارِجِ بمَنأًى عن التدريسِ في المرحلةِ الجامعيَّةِ الأولَى، وقد أثنَى على هذا الصَّنِيعِ، ورأَى أنَّ هذا المنهَجَ كانَ مدعاةً للنَّجاةِ لكُلٍّ من الأساتِذَةِ والطُّلابِ وذلكَ بقَولِهِ: "فَنَجَوا ونَجَونَا".

وَكانت الطائفَةُ الثانِيَةُ مَرمَى سهامِ نقدِهِ؛ إذ رأَى أنَّها كانت سبَبًا في إبعادِ طُلَّابِ العِلمِ عن تراثِهِم العلمِيِّ الواجِبِ مُدارَسَتُه، يقول:

"ومِنهم طائِفَةٌ قد أهَمَّتهُم أنفُسُهُم، فذهبُوا يختَالونَ في ثِيابِ الزَّهوِ والعُجْبِ، ثمَّ راحُوا يضرِبُونَ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ، هُزْءًا بالنحوِ العربيِّ وسُخرِيَةً بأعلامِهِ ... وهذِهِ الطَّائِفَةُ – فَضلًا عن أنّها حجَبَت عنَّا تُراثَنَا، وغَيَّبَتهُ عنَّا، بل تَمادَت

(١) انظر في اللغة والأدب: ٢/٥١٢-٥١٨.

فزَهَّدَتنا فِيهِ وأقامَت بينَنَا وبينَهُ حِجازًا عالِيًا كثيفًا– قد فَتَحَت بابًا من الشَّرِّ عظيمًا؛ فإنَّ نَفَرًا من المُعيدينَ قد راقَ لهم هذا المذهَبُ فاتَّبَعُوهُ، واستَهواهُم ذلكَ الطريقُ فَسَلَكُوهُ، وصارَ دَيدَنُهُم الطَّعْنَ على النَّحْوِ، والقَدْحَ في النُّحاةِ فيما سمّوهُ بنقدِ الفِكرِ النَّحوِيِّ، وهؤلاءِ المُعيدُونَ صارُوا أساتِذَةَ الآنَ، ولا يزالُونَ على ما هُم عليهِ، وهم يكتُبُونَ في فلسَفَةِ النَّحوِ كلامًا لا تعرِفُ لهُ أعلى من أسفَل ... والله المسؤول أن يصرف ذلكَ عنهُم بِمَنِّهِ وكَرَمِه"[1].

٣- الاشتِغال بالنَّظرِيَّةِ واجتِواء التَّطبيق:

خلَصَ الطناحي رحمه اللهُ تعالى إلى أن الإسرافَ في الحديثِ عنِ النظرياتِ والمناهِجِ من الأمورِ التي أدَّت إلى ضَعفِ إحساسِ أبنائِنا بالعربيةِ الأُولَى، وهو الذي أورثَهُم العَجزَ الذي يأخذُ بألسِنَتِهِم وأقلامِهِم فلا يستطيعونَ قولًا ولا بيَانًا[2]، ورأى أن هذا السببَ كانَ في الوقت نفسِهِ نتيجةً للسببِ السابقِ؛ إذ إن كثرَةَ الحديثِ عن نقدِ الفِكرِ النَّحوِيِّ واللُّغوي مَهَّدَ الطريقَ وعبَّدَهُ لهذا القدرِ الهائلِ من النظرياتِ، وفي هذا السِّياقِ فرَّق –رحمَهُ الله– بين ما كتَبَهُ الأساتِذَةُ الكبارُ ممَّن سمَّاهم جيلَ الحَفَظَةِ والمتونِ، الذين كانُوا يملِكونَ الوعيَ التراثيَّ الجيِّدَ بالنحوِ واللغةِ، وبين ما كتبَهُ تلاميذُهُم الصغارُ الذين اندَفَعُوا في هذا الطريق اندِفاعًا، دونَ أن يكونَ لديهم هذا الوعيُ بتُراثِهم –على نحوِ ما كان لدَى أساتِذَتِهم– مما يؤهِّلُهُم لخَوضِ غمارِ هذا الحديث، فكانت تلك الآفة؛ إذ استسهَلَ بعضُهم هذا الطريق وانشغلوا بتلك المصطلحاتِ، وابتعدُوا عن فقهِ نُصُوصِ لُغَتِهِم وتذوُّقِها؛ ومن ثمَّ

(١) انظر في اللغة والأدب: ٢/٥١٢-٥١٣.

(٢) المرجع السابق: ٢/٥١٩-٥٢٤.

ضعُفَت ملكَتُهُم العربيَّة وخطَّأوا بعضَ أساليبِ العرب الفصيحة نتيجة هَجرِهم كلامَ العرَبِ، وذكر أمثلةً لذلك.

يقول رحمَهُ الله: "على أنَّ السيرَ في هذا الطريقِ سهلٌ لاحِبٌ لِمن أرادَ أن يَسلُكَهُ، والشأنُ فيه قريبٌ لأنَّهُ قليلُ الأعباءِ، غيرُ مُكَلِّفٍ؛ فليسَ أيسرَ على طالِبِ العِلمِ من حِفظِ هذهِ المصطلحاتِ النَّظَرِيَّةِ واستِظهارِهَا، ثم استِحضارها في كُلِّ وقتٍ وحِينٍ، أمَّا فِقهُ النصوصِ، وفهمُ كلامِ العربِ وتَذَوُّقُهُ وتوجيهه وتحليله فهو شيءٌ مُغَيَّبٌ تمامًا عندَ أبناءِ هذا الجيلِ، والنَّاسُ تستَسهِلُ المسالِكَ"(١).

ويرى أن الحديثَ الغامضَ المبهمَ عن منهجِ البحثِ العلمي والتفكيرِ الموضوعيّ، والمناهجِ النفسيةِ والتاريخيةِ والاستردادية، وعن البنيويةِ والتحويليةِ، وسائرِ المدارسِ اللغويةِ شرقًا وغربًا، يجب ألَّا يكون بابًا للثرثَرَةِ والادِّعاءِ، بل ينبغي أن يوظَّفَ لخدمَةِ تُراثِنا اللغويِّ والنحويّ، وتجلِيَتِه والكشف عنه وتيسيرِ التعاملِ معه والانتفاعِ به، وتلك هي الغايةُ المنشودَةُ؛ يقولُ رحِمَهُ اللهُ: "وقد كَتَبتُ كثيرًا وحاضَرتُ عن هذهِ الآفَةِ: آفَةِ الانشِغالِ بالنَّظرِيَّاتِ وإهمالِ التطبيقَاتِ، وقُلتُ: إنَّ الغُلُوَّ في هذا السُّلُوكِ قد أنتَجَ لنَا طائِفَةً من حَمَلَةِ الماجستير والدكتوراه، ترى أَحَدَهُم فَصِيحًا لسِنًا جَدِلًا إذا خاضَ فِي المناهِجِ وطُرُقِ البحثِ العِلمِيِّ، ونَشأةِ المَدَارِسِ الأدبيَّةِ واللُّغَوِيَّةِ والنَّحوِيَّةِ، وإذا تكلَّمَ في شيءٍ من ذلكَ ملَأَ فَمَهُ بالحُروفِ ولاكَ ومَضَغَ، وخَلَطَ عربِيًّا بِعَجَمِيٍّ، وبَهَرَ النَّاسَ بِما يُشبِهُ أُخْذَةَ السَّاحِرِ، وفَغَرَ السامِعونَ أفواهَهُم، دهشًا لِهذا السَّيلِ المنهَمِرِ، وهُوَ يتَلَوَّى في منطِقِهِ سادِرًا في لَغوِهِ نَشْوانَ، يسخَرُ مِن هذا ويهزَأُ بِذَاكَ من عُلَمائِنا الأكرَمِينَ رضِيَ اللهُ عنهُم، لا يكادُ يرُدُّهُ شيءٌ، فإذا أنتَ أخَذْتَهُ إلى سَطرٍ واحِدٍ مِمَّا كَتَبَهُ السَّابِقُون الأَوَّلُونَ،

(١) انظر في اللغة والأدب: ٢/٥١٩.

سَقَطَ كُلُّ قِناعٍ وانكَشَفَ كُلُّ خَبيءٍ، وتَعَرَّى كُلُّ زَيفٍ، وهَجَمَ بِكَ على ما يُؤذِي سَمعَكَ من مِساخِرِ اللَّحنِ الظَّاهِرِ والخَفِيِّ، وأَضاحِيكِ العُجْمَةِ، فِي صِفاتِ الحروفِ ومَخارِجِها، ثمَّ في نُطقِ الأعلامِ والأنسابِ والكُنى والألقابِ، وانتَهَى بِكَ إلى كلامٍ مُحَرَّفٍ ومُزالٍ عن جِهَتِهِ، وهكذا تمضِي الأُمورُ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل"[1].

٤- إهمال جوانبِ ضَرورِيَّةٍ في تعليمِ العربيَّةِ

لَعَلَّ أوضَحَ مَا يُبِينُ عن وِجهَةِ نَظَرِ الطَّناحِيّ رحِمَهُ الله في العَوامِلِ التي تؤَدِّي إلى ضَعفِ المَلَكَةِ اللُّغَوِيَّةِ عندَ المتعلِّمين هُوَ حديثُهُ عن إهمالِ الجوانِبِ الضَرورِيَّةِ في تعليمِ العربيَّةِ والمُتَمَثِّلَة عندَهُ في ثلاثَةِ جَوانِبَ هي: الحِفظُ، والضَّبطُ، ومخارِجُ الحروفِ وصفاتُها؛ إذْ إنَّ إهمالَ تِلكَ الجوانِبِ تكونُ نتيجَتُهُ سَلبِيَّةً على المُتَعَلِّمِينَ، ويمكِنُ تفصيلُ ذلك على النحوِ الآتي.

أ- الحِفظ.

تبَيَّنَ اهتِمامُ الطناحي بِالحِفظِ لِدَورِهِ في تنميةِ الملكَةِ اللغويةِ؛ إذْ أفرَدَ حديثًا مستقِلًّا بعنوانِ: الحِفظ وأثره في ضَبْطِ قَوانينِ العربية[2]،ورأى أنَّ الحِفظَ الأساسُ المتِينُ، والجَانِبُ الأوَّلُ مِن الجوانبِ الضرورية في تعليمِ النحوِ والعربية[3]، كما كانت لهُ وِجهَةُ نظرٍ مُعارِضَةٌ للرأيِ القائلِ بأنَّ الفَهمَ

(١) في اللغة والأدب: ٢/٥٢١.

(٢) نُشِرَ بمجلة الهلال، القاهرة، عدد فبراير ١٩٩١م. وضمن مَقالات العلّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: ١٤٧-١٥٧.

(٣) في اللغة والأدب: ٢/٥٢٤-٥٢٩.

شرطٌ للحِفظِ، مُؤَيِّدًا رأيَهُ بالحُجَّةِ المُقنِعَةِ مِمَّا قالَهُ القُدَماءُ، وبما عايَشَهُ واقِعًا.

فَيَرى أنَّ طبيعةَ تعلُّمِ العربيةِ تقتضي حِفظَ كثيرٍ من النصوصِ لتثبيت القواعدِ، والتمكينِ للأبنيةِ والتراكيبِ في ذِهنِ طالِبِ العِلمِ[1]، مؤيِّدًا كلامَه بأقوالِ العلماءِ القُدَماءِ لا سيَما ابنُ خلدون الذي ذَكَرَ بَعضَ عِباراتِهِ؛ نحوَ قَولِهِ: "ووجه التعليمِ لمَن يبتغي هذه المَلَكَةَ ويرومُ تحصيلَها أن يأخُذَ نَفسَهُ بحِفظِ كلامِهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآنِ والحديثِ وكلامِ السَّلَفِ ومُخاطباتِ فُحولِ العَربِ في أسجاعِهِم وأشعارِهم وكلماتِ المولَّدِينَ أيضًا في سائرِ فُنونِهِم، حتى يتنزَّلَ لِكثرَةِ حِفظِهِ لكلامِهم من المنظومِ والمنثورِ منزِلَةَ مَن نَشَأَ بينَهُم ولُقِّن العبارَةَ عن المقاصدِ منهم"، وقولِه: "إن حصولَ مَلَكَةِ اللسانِ العربيِّ إنما هو بكثرةِ الحِفظِ من كلامِ العَربِ حتى يرتَسِمَ في خيالِهِ المِنوالُ الذي نَسَجُوا عليهِ تراكِيبَهُم فينسِجُ هوَ عليهِ، ويتنَزَّلُ بذلكَ منزِلَةَ مَن نَشَأَ مَعَهُم وخالَطَ عِباراتِهِم في كَلامِهِم حتى حصلَت لَهُ المَلَكَةُ المستَقِرَّةُ في العبارَةِ عنِ المقاصِدِ على نحوِ كلامِهِم"، وقولِه: "لابدَّ من كثرَةِ الحِفظِ لِمَن يرُومُ تَعَلُّمَ اللسانَ العربيَّ، وعلى قَدرِ جَودَةِ المحفوظِ وطَبَقَتِهِ في جِنسِهِ وكثرَتِهِ مِن قِلَّتِهِ تكونُ جودَة المَلَكَةِ الحاصلَة عنه للحافِظ"[2]، وكان ابنُ خلدون قد أفرَدَ فصلًا في المقدمَةِ عن أنَّ حصولَ المَلَكَةِ بكثرَةِ الحِفظِ وجَودَتِها بِجَودَةِ المحفوظِ[3].

(١) في اللغة والأدب: ٢/٥٢٦.

(٢) المرجع السابق: ٢/٥٢٦-٥٢٧.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ٣/١١٦٩-١١٧٢.

ويُعارِضُ الطناحيّ الرَّأيَ القائِلَ بأنَّ الفَهمَ شرطٌ للحِفظِ؛ وأنَّ مطالَبَةَ الصَّبِيِّ بحِفظِ ما لا يفهَمُهُ غيرُ مُجدٍ في العمليةِ التعليمية، فيقول:

"وقد وقَعْتُ على نَصٍّ خطيرٍ جِدًّا هو خيرُ رَدٍّ وأَوفاهُ على هؤلاءِ الذين يشترِطونَ للحِفظِ الفَهمَ ... يقولُ أبو الفتحِ عُثمان بن جِنّي: "قال لنا أبو عليّ –الفارِسي– يومًا: قال لنا أبو بكر –ابن السَّرّاج–: إذا لم تفهمُوا كلامِي فَاحْفَظُوهُ؛ فإنَّكُم إذا حَفِظتُمُوهُ فَهِمتُمُوهُ". ويعَقِّبُ بقَولِهِ: "وهذا كلامٌ صحيحٌ يُصَدِّقُهُ الواقِعُ وتُؤكِّدُهُ التَّجرِبَةُ، فإنَّ الإلحاحَ بالحِفْظِ الدَّائِمِ المستَمِرِّ مِمَّا يُمَهِّدُ لِلفَهمِ لا مَحالَة، وآيَةُ ذلكَ أنَّ صِغارَ التلامِيذِ في دُورِ الحَضانَةِ والرَّوضَةِ يُرَدِّدُون مع إطلالةِ كُلِّ صباحٍ النشيدَ الوطَنِيَّ لِبلادِهِم، وهُم بالقَطعِ لا يعرِفون شَيئًا عن معانِي مُفرَدَاتِهِ فَضلًا عن تراكِيبِهِ، ولكنهم بمرورِ الأيامِ يُدرِكُونَ ويفهَمُونَ، والشواهدُ على ذلك أكثرُ من أن تُحصَى في اكتِساب المهاراتِ وإدراكِ المعارِفِ"[1]، ثمَّ يُشِيرُ إلى الكَمِّ الهائِلِ من المنظوماتِ النحويةِ والصرفيَّةِ وسائرِ العلومِ للدلالةِ على أهمية الحِفظِ في تُراثِنَا العِلمِيّ.

وللتّأكيدِ عَلى أهميةِ الحِفظِ في الدرس اللُّغويِّ يَرَى أنَّهُ الأساسُ المتين، ويُسمِّي جيلَهُ وجيلَ أساتِذَتِهِ الذينَ اهتَمُّوا بِهِ "جِيلَ الحَفَظَة" كما سَبَقَت الإشارَةُ إلى ذلك؛ فيقول:

---

(١) في اللغة والأدب: ٢/٥٢٧–٥٢٨، وانظر: الخصائص، لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٥م: ١/٢١٦، وقد أخبرني رَحِمَهُ اللهُ في أُخرَياتِ أيامِهِ أنَّه كانَ يُداوِمُ على حِفظِ بَعضِ الأبياتِ الشعريَّةِ.

"ومِمَّا لا يختَلِفُ عليهِ اثنانِ أيضًا أنَّ أساتِذَتَنَا الأكرمينَ وزُملاءَنا الأفاضِلَ الذين كتبوا الدراساتِ الحديثةَ في النّحوِ واللغَةِ، وشَرَّقَت كُتُبُهُم وغَرَّبَت، ينتمونَ جميعًا إلى جِيلِ الحَفَظَةِ (حَفَظَةِ القرآنِ الكريمِ والمُتونِ والحَواشِي والمصطَلَحاتِ القديمَة)، ولولا هذا الأساسُ المَتينُ ما استَطاعُوا أن يفقَهُوا النحوَ ويبرَعُوا فيه"(١).

ب- الضَّبط.

أرادَ الطناحيّ – رحمه اللهُ – بالضَّبطِ هنا ضبطَ أبنيةِ الأسماءِ والأفعالِ(٢)؛ إذْ يرى أنَّهُ بابٌ من أبوابِ العربيَّةِ ينبغي العنايةُ بهِ وتَعَهُّدُهُ وليسَ أمرًا شَكليًّا؛ وذكَرَ أمثِلَةً للخطَأِ في ضبطِ أبنِيَةِ بعضِ الأفعالِ عند المتعلِّمين والتخليطِ فيها؛ مثل عدَمِ التَّفرِقَةِ بين (حَسَبَ يحسُبُ) من الحِسابِ والعَدِّ، و(حَسِبَ يحسَبُ ويحسِبُ) من الظَّنِّ والحُسبانِ، و(كَبِرَ يكبَرُ) في السِّنِّ والعُمرِ، و(كَبُرَ يَكْبُرُ) بمعنى عَظُمَ يعظُمُ، و(لَعَبَ الغُلامُ) بمعنى سالَ لُعابُهُ، و(لَعِبَ) من اللَّهوِ واللَّعِب، وقولهم: وقَعَ في رَوعِي كَذَا، بفتحِ الرَّاءِ، والصَّوابُ ضَمُّها، ونَبَّهَ رحِمَهُ اللهُ في هذا السياقِ إلى أن معجَمَ المِصباح المُنيرِ –على صِغَرِهِ ووَجازَتِهِ– من أنفَعِ المعاجِمِ في ضَبطِ عينِ الفِعلِ.

وأرجَعَ الطناحيّ السَّبَبَ في الاستِخفَافِ بهذا الجانِبِ في الدَّرسِ اللغويِّ إلى ثلاثَةِ أسبابٍ:

---

(١) في اللغة والأدب: ٢/٥٠٢.

(٢) انظر المرجع السابق: ٢/٥٣٠-٥٣١.

١- أنَّ دِراسَةَ المعاجِمِ الآنَ صَارت نَظَرِيَّةً أكثرَ منها تطبيقيةً نتيجَةَ الحيلولَةِ بينَ الطلَبَةِ والمعاجِمِ العربيةِ.

٢- تَحاشِي التنبيهِ على الأخطَاءِ في الضَّبطِ بداعِي أنّها من الأمورِ الشكليةِ التي لا ينبغي التوّقُّفُ عندَها.

٣- إهمال الضّبطِ في الكُتُبِ المدرسيَّةِ والجامعيَّةِ، وإن رُوعِيَ الضبطُ في بعضِها أحيانًا فإنه يأتي على الشائعِ على الألسنةِ دونَ مُراجَعةِ الأُصولِ للتَّحرِّي والاستيثاق.

جـ - مخارِج الحروفِ وصِفاتِها:

أكَّدَ الطَّناحي رحِمَهُ الله على ضرورَةِ الاهتِمامِ بمَخارِجِ الحروفِ وصِفاتِها[1]، ورأَى أنَّ أساسَ هذا العلمِ -الصَّوتيَّات- التَّلَقِّي والمُحاكاةُ، ومِن ثَمَّ نَبَّهَ على أهميَّةِ ذلكَ في النَّشأةِ الأولى وهي مرحلَةُ الكُتَّابِ أو المرحلة الابتدائية، وإلَّا فيجبُ تدَارُكُه في المرحلةِ الثانويةِ أو الجامعية، حتى يُنَمَّى لدى الطالبِ الحِسُّ الصوتيُّ ومَذَاقُ الحروفِ على حَدِّ تعبيرِهِ رحِمَهُ الله، شريطَةَ أن تُساعِدَ المناهجُ الدِّراسيةُ على ذلك؛ فلا يُكتَفى في هذه المناهِجِ بما كتبَهُ علماءُ الغربِ، وألَّا يُغالَى في استِعمالِ مصطلَحَاتِهم، بل يجبُ الأخذُ في الاعتِبارِ ما كَتَبَهُ علماؤنا القدامَى؛ وأن يحظَى علمُ القِراءاتِ القرآنيةِ بالاهتِمامِ الكافِي، وإن كانت ثمَّةَ ضرورَةٌ للنظريَّاتِ الغربيَّة في الدَّرسِ الصوتي فيجب أن تُقَدَّمَ في قالَبٍ عربِيٍّ من الشَّواهِدِ والأمثِلَةِ بحيثُ لا يطْغى الجانبُ التجريديُّ على الناحية التطبيقيةِ، يتَّضِحُ ذلك في قولِه:

---

(١) انظر في اللغة والأدب: ٢/٥٣١-٥٣٧.

"نَعم إنَّ في الجامعاتِ العربيةِ درسًا للصوتِيَّاتِ يقومُ عليهِ أساتِذَةٌ على قَدرٍ عالٍ من العِلمِ والمعرِفَةِ، ولكنها دراسَةٌ يغلُبُ عليها التجريدُ ويَقِلُّ فيها التطبيقُ، فضلًا عن استِمدادِها من أُصولٍ غربيَّةٍ، وقد أنتَجَت لنا النَّظرياتُ الصوتِيَّةُ مثلَ الصَّوامِتِ والصَّوائِت، والفُونيمات والمورفيمات، والمُماثلة والمخالفة، وتبادُل التأثير والتطور اللغويّ، ورموز دانيال جونز، ولكن هذه الطائفةَ من الدارسينَ عندَ إدارَةِ الكلامِ وتَحريكِ اللسانِ فِي جَوبَةِ الحَنَكِ تَعجِنُ الحروفَ عَجنًا، وتُخَلِّطُ تخليطًا شديدًا يُؤذي سمعَكَ إيذاءً، ويُعَكِّرُ عليكَ تعكِيرًا... على أنَّ الحَقَّ يقتضِينَا أنْ نُقَرِّرَ أنَّ بعضَ هذِهِ الكتاباتِ الصوتِيَّةِ الحديثةِ قد أحسَنَ كاتِبُوهَا حينَ نَزَّلوا هذهِ النَّظرِيَّاتِ على مُثُلٍ وشَواهِدَ عربيَّةٍ، فكانت تلكَ النَّظرَيّاتُ موظَّفَةً توظِيفًا جيِّدًا لِخِدمَةِ موروثِنَا اللغَوِيِّ، على حِينِ غَلا بعضُهم في استِعمالِ المُصطَلَحِ والمَثَلِ الأجنبِيِّ، فأصبَحتَ كأنَّكَ تقرَأُ كتابًا في علمِ اللغَةِ وفِقهِها عندَ الإنجليزِ أو الفرنسيّين أو الألمانِ"[1].

ويؤكِّدُ على ضرورةِ اتِّباعِ منهَجِ السَّلَفِ التعليميِّ في تعَهُّدِ هذا الجانِبِ بالاهتِمامِ عن طريق التَّكرارِ والمُحاكاةِ وهوَ ما يرتَكِزُ عليهِ هذا العِلمُ، مُتَمَنِّيًا أن يحذُوَ الأساتِذَةُ المعاصِرونَ حَذوَ هؤلاءِ الأسلافِ في الدَّرسِ الصوتِيِّ قائلًا:

"فليتَ أساتِذَتَنَا الأكرمِينَ وزُملاءَنا الأفاضِلَ يقتَطِعونَ وقتًا من هذا المنهجِ الصوتي للقراءةِ أو (المطالعة) كما كانت تُسَمَّى في زماننا؛ فيأخُذُ الأستاذُ نَصًّا تُراثِيًّا يعالِجُهُ مَعَ طَلَبَتِهِ، ويُدِيرُهُ على مَخارِجِ الحروفِ وأحيازِها

(١) في اللغة والأدب: ٢/٥٣٣-٥٣٤.

وصِفاتِها على نحو ما كان يفعلُ (سَيِّدُنا) في كُتَّابِ القريةِ وسائرُ مُحَفِّظِي القرآنِ الكريمِ، فإنَّ هؤلاءِ المشايخَ البُسَطاءَ كانوا يُعالِجون هذهِ الصوتياتِ مَعَ صِغارِ الصِّبيانِ بالتَّلَقِّي والمُحاكاةِ، ويُجهِدُونَ أنفُسَهُم إجهادًا معَ هؤلاءِ الصِّغارِ ولا يضجَرونَ ولا يمَلُّونَ من كثرَةِ التكريرِ والترديدِ حتى يبلغوا من هؤلاءِ الصِّبيَةِ الصِّغارِ مِن سلامةِ النُّطقِ واستِقامَةِ الأداءِ ما يُريدُون [1].

وبعدَ أن يذكُرَ بعضَ الأمثلَةِ لترقيقِ الحروفِ وتفخيمِها ونماذجَ للنَّبرِ الصَّحيحِ والخَاطِئِ في المقاطعِ الصوتيةِ لِبعضِ الكلماتِ القُرآنِيَّةِ، يَخلُصُ إلى أنَّ الضَّوابِطَ والحدودَ التي وَضَعها عُلَماءُ التجويدِ للتلاوَةِ والأداءِ تعَدُّ الأنموذَجَ المِثالِيَّ لِنُطقِ العربيَّةِ الفُصحى، مُوَجِّهًا إلى ضرورَةِ استِثمارِ علمِ القراءاتِ القرآنيَّةِ لا سيما الجانبُ الصوتيُّ مِنهُ، ونَظَرًا لِنُدرَةِ عُلَماءِ القِراءاتِ في زَمانِنَا يدعُو إلى ضرورَةِ الإسراعِ بالاستِفادَةِ ممَّنِ على قيدِ الحياة منهم قائلا: "واجِبٌ كُلَّ الوجوبِ أن يأخذَ هذا العِلمُ مكانًا متميّزًا في الدِّراساتِ العربيَّةِ وليكُن ذلكَ في السنةِ التمهيديةِ المؤهِّلَةِ للدراساتِ العُليا، ولتَكُنِ الأستاذِيَّةُ فيهِ شَرِكَةً بينَ أساتِذَةِ الدِّراساتِ العُليَا الجامِعِيِّينَ المتفَقِّهِينَ في علمِ الصَّوتيَّاتِ الحديثِ، وبين نَفَرٍ من هؤلاءِ المشايخِ الحَفَظَةِ للتَّلَقِّي منهم ومُشافَهَتِهِم، ولنُسرِعْ؛ فإنَّ هذهِ الطَّبَقَةَ من المشايخِ في طريقِها للانقِراضِ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ العظيم"[2].

(١) في اللغة والأدب:٢/٥٣٤.

(٢) المرجع السابق:٢/٥٣٧.

الـخـاتـمـة

بعدَ استِقراءِ آراءِ الأستاذ الدكتور محمود الطناحي في تَكَوِّنِ المَلَكَةِ اللغَويَةِ واستِوائِها وعَوامِلِ ضعفِهَا في ضوءِ مُنجَزِهِ الفِكرِيِّ وعلى ضَوءِ ما سَبقَ يمكِنُ إيجازُ ما انتهى إليه البحثُ في النتائجِ الآتيةِ:

١- كانَ للدكتور الطناحي –رَحِمَهُ اللهُ– رؤيتُهُ الواضِحَةُ في تَكَوُّنِ المَلَكَةِ اللُّغويَّةِ من خلالِ حديثِهِ عن أَثَرِ البِيئَةِ التي يعيشُ فيها المُتعلِّمونَ في مَلَكَتِهم؛ إذ أبانَ عنِ الأثَرِ الإيجابِيِّ للقُرآنِ الكريمِ ومُدارَسَتِهِ، ورَأَى أنَّ مُطالَعَةَ كُتُبِ النَّحوِ ومُدَارَسَةَ مَا تَتَضَمَّنُهُ من شَواهِدَ وأقوالِ المُعرِبينَ، وكذلك مَا سَمَّاهُ بـ (الجَوّ الأدَبيّ) المُحيطِ بِالمُتعلِّمين، مِمَّا يُساعِدُ على تكوينِ المَلَكَةِ اللغويَّةِ.

٢- كَشَفَ البحثُ عن وِجهَةِ نَظَرِ الطّناحِي –رَحِمَهُ اللهُ– في الوَسائِلِ التي تُغَذِّي المَلَكَةَ اللغويَّةَ للمُتَعَلِّمينَ؛ فَطالَبَ بِضَرورَةِ إعادَةِ النَّظَرِ في المَناهِجِ التَّعليمِيَّةِ في المراحِلِ الدِّراسِيَّةِ المُختلفَةِ، ونَبَّهَ إجمالًا إلى ضرُورَةِ الاهتِمامِ بمَوروثِنا الأدَبِيِّ لصَقْلِ المَلَكَةِ، كَما وَجَّهَ اللَّومَ للأساتِذَةِ على تقصيرِهِم في الاهتِمامِ بهذَا المَورُوث، وأثنَى على المَناهِجِ الدِّراسِيَّةِ التي عاصَرَها زَمَنَ طَلَبِهِ في الأزهرِ وفي التعليمِ العامِّ، كما أثنَى على أربَعَةِ الكُتُبِ التي عدَّها ابنُ خلدونَ مَصادِرَ الأَدَبِ، وظَهَرَ اعتِناؤُهُ الخاصُّ بمُؤَلَّفاتِ الجاحِظِ؛ إذْ رأى أنَّها تأخُذُ بيَدِ الطالِبِ إلى المَكتبَةِ العربيَّةِ كُلِّها،

٣- طالَبَ الطناحِي –رَحِمَهُ اللهُ– بضَرُورَةِ مُراعاةِ المُستَوى التعليمِيِّ لِلطُّلّابِ عُمومًا بالتَّدَرُّجِ في تقديمِ المادَّةِ التعليمِيَّةِ لهم، وخَصَّ الدَّرسَ النَّحوِيَّ والمُعجَمِيَّ

والعَرُوضِيَّ بالتَّفصِيلِ، فَذَكَرَ أمثِلَةً للكُتُبِ التي تُلائِمُ المُبتَدِئينَ، وغيرِها مِمَّا لا يُطِيقُهُ إلّا من ارتَقَى إلى مرَاحِلَ مُتَقَدِّمَةٍ من التَّعليمِ.

٤- فَرَّقَ –رَحِمَهُ اللهُ– بينَ النَّحوِ التَّعليمِيِّ أو الوَظِيفِيِّ الذي يُقَدَّمُ للنَّاشِئَةِ والمُبتَدِئينَ، ونحوِ التَّراكِيبِ الذي يدرُسُهُ من تَعلَّمَ أُصُولَ النَّحوِ وارتَقى فيهِ خُطواتٍ، وأشارَ إلى أَنَّ عُلَماءَنا القُدامَى كانت لدَيهم نَوَازِعُ مُبَكِّرَةٌ للفَصْلِ بينَ هذينِ المُستَوَيَين.

٥- ظَهَرَ مِن خلالِ البَحثِ استِنكارُهُ –رَحِمَهُ اللهُ– مَا يقومُ بِهِ بعضُ الأَساتِذَةِ مِن التَّعَرُّضِ لِنَقدِ العُلومِ العَرَبِيَّةِ في دُروسِهِم للطُّلابِ في مرحلَتِهِم الجامِعيَّةِ الأُولَى، مُطالِبًا بالتَّركيزِ علَى تقدِيمِ أُصولِ العِلمِ وهوَ مَا ينبَغي أن يُدرَسَ فقط في هذه المرحلةِ، وأن يُرجَأَ مثلُ هذا النَّقدِ إلى مرحلَةِ الدِّراساتِ العُليَا.

٦- رأى –رَحِمَهُ اللهُ– أنَّ تكوُّنَ المَلَكَةِ العروضِيَّةِ هوَ الغايةُ من دِراسَةِ العَروضِ؛ ويكونُ ذلك بمعرِفَةِ الأوزانِ والبحورِ الشعرِيَّةِ والتمييزِ بينِها، أَمَّا المصطَلَحاتُ فرأَى أنْ تُرجَأُ إلى مرحَلَةٍ لاحِقَةٍ بَعدَما ترسُخُ الملَكَةُ العروضِيَّةُ لدى المتعلِّمِ، كَما رَدَّ على مَن يَدَّعي صُعوبَةَ المُصطَلَحاتِ العَروضِيَّةِ.

٧- نادَى –رَحِمَهُ اللهُ– بِضَرورَةِ مُراعاةِ الجانِبِ التَّطبيقِيِّ في الدَّرسِ المُعجَمِيِّ، وإرجَاءِ الحديثِ عن المَآخِذِ التي تُوَجَّهُ للمَعاجِمِ العربيَّةِ إلى المراحِلِ التعليمِيَّةِ المُتَقَدِّمَة.

٨- فيما يتعلَّقُ بِضَعفِ المَلَكَةِ اللُّغوِيَّةِ لَدى الطُّلابِ رأى –رَحِمَهُ اللهُ تعالى– أنَّ هَجرَ الكِتابِ القَدِيمِ أَساسُ البَلاءِ ومَدخَلُه، ورأى أنَّ الاستِعاضَةَ عن هذا الكِتابِ

بالمُذَكِّراتِ والمُختَصَراتِ تكونُ نتيجَتُها الجَهلَ المُطبِقُ؛ إذ إنَّ ذلكَ يحُولُ بينَ الطُّلَّابِ ومَوَارِدِ العِلمِ الحقيقِيَّةِ.

٩- ذَكَرَ – رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ طُغيانَ المَناهِجِ الغربِيَّةِ في دُرُوسِ النَّحوِ واللُّغَةِ كانَ من أسبابِ ضَعفِ المَلَكَةِ لَدَى الطُّلَّابِ، وأنَّ كلامَ بعضِ الأساتِذةِ في فلسَفَةِ النَّحوِ ونَقدِ الفِكرِ النَّحويِّ حَجَبَ عن المُتَعلِّمينَ تُراثَهُم اللغَوِيَّ الجديرَ بالدِّراسَةِ، ورأَى أنَّ الاشتِغالَ بالنَّظرِيَّةِ واجتِواءَ التَّطبيقِ كانَ نتيجَةَ ذلكَ، وفي هذا الإطارِ فَرَّقَ –رَحِمَهُ اللهُ- بينَ مَا كَتَبَهُ هؤلاءِ الأَساتِذَةُ مِمَّن يَملِكون الوعيَ الكافِي بِتُراثِهِم – وهم الذين سَمَّاهُم (جِيل الحَفَظَةِ والمُتون)- ومَا كَتَبَهُ تلامِيذُهم الصِّغارُ مِمَّن لا يمتَلِكونَ هذا الوعي، ورأى أنَّ الكلامَ عنِ المَدارِسِ اللُّغَوِيَّةِ الحديثَةِ ينبَغِي أن يُوَظَّفَ لِخِدمَةِ تُراثِنا اللُّغَوِيِّ، لِكَشْفِهِ وتيسيرِ التَّعامُلِ مَعَهُ والانتِفاعِ بِهِ، وألَّا يكونَ بابًا لِلثَّرثَرَةِ الفَارِغَةِ.

١٠- رأَى – رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ إهمَالَ ثلاثَةِ الجوانِبَ: الحِفظ، وضبط أبنيةِ الأسماءِ والأفعالِ، ومَخارِجِ الحُروفِ وصِفاتِها؛ يُؤَدِّي إلى ضَعفِ المَلَكَةِ اللُّغَوِيَّةِ؛ وعارَضَ الرَّأيَ القائلَ بأنَّ الفَهمَ شَرطٌ لِلحِفظِ، مُدَعِّمًا رأيَهُ بِشَواهِدَ من الواقِعِ ومن كلامِ القُدَماءِ، ورأى أنَّ الضَّبطَ ليس أمرًا شَكلِيًّا، بَل ينبَغي الاعتِناءُ بِهِ وتَعَهُّدُهُ، ودَعا إلى الاعتِناءِ بِمَخارِجِ الحُروفِ وصِفاتِها وخاصَّةً في مراحِلِ النَّشأةِ الأُولَى للطَّالِب حتّى ينمُو لَدَيهِ الحِسُّ الصَّوتِيُّ، مُنَبِّهًا إلى ضرورَةِ أن يُؤخَذَ في الاعتِبارِ ما كَتَبَهُ عُلماؤنا القُدامَى وخاصَّةً في القِراءاتِ القُرآنِيَّةِ، ولا يُكتَفَى بِما كَتَبَهُ عُلَماءُ الغربِ، وأنَّ الضَّوابِطَ والحُدُودَ التي وَضَعَهَا عُلماءُ التَّجويدِ للتِّلاوَةِ والأداءِ تُعَدُّ الأُنمُوذَجَ المِثالِيَّ لِنُطقِ العربيَّةِ الفُصحَى، ومن ثَمَّ فإنَّ عِلمَ

الصَّوتِيَّاتِ يجِبُ أن يقُومَ علَيهِ أساتِذَةٌ من الأكادِيمِيِّينَ المتفَقِّهينَ في هذا العِلمِ، بالاشتِراكِ مَعَ طَبَقَةِ الحَفَظَةِ من المَشايِخ.

المـراجـع

١- الأعـلام، خيـر الـدين الزركلـي، دار العلـم للملايـين، بيـروت، الطبعـة الخامسـة عشرة ٢٠٠٢م.

٢- التعريـف بـابن خلـدون ورحلتـه غربًـا وشـرقًا، محمـد بـن تاويـت الطنجـي، لجنـة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م.

٣- التعريفـات، علـي بـن محمـد بـن علـي الجرجـاني ، تحقيـق إبـراهيم الإبيـاري، دار الريان للتراث (د.ت).

٤- التفكيـر اللسـاني فـي الحضـارة العربيـة، عبـد السـلام المسـدي، ، الـدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

٥- الخصـائص، أبـو الفـتح عثمـان بـن جنـي، تحقيـق محمـد علـي النجـار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٥م.

٦- ابـن خلـدون: حياتـه وتراثـه الفكـري، محمـد عبـد الله عنـان، دار الكتـب المصرية، الطبعة الأولى:١٩٣٣م.

٧- دراسـات عـن مقدمـة ابـن خلـدون، سـاطع الحصـري، مكتبـة الخـانجي، القاهرة، ودار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٦٧م.

٨- ديـوان النابغـة الـذبياني بتحقيـق محمـد أبـو الفضـل إبـراهيم، ذخـائر العـرب، العدد ٥٢، دار المعارف، الطبعة الثانية، د.ت.

٩- شـوامخ المحقِّقـين، مُحاضَـرات الموسـم الثقـافي لمركـز تحقيـق التـراث، دار الكتـب والوثـائق القومية،نـدوة محمـود الطنـاحي، تحريـر حسـام أحمـد عبـد الظاهر، ٢٠١٤م.

١٠- الضـوء اللامـع لأهـل القـرن التاسـع، شـمس الـدين السـخاوي، دار الجيـل، بيروت، د.ت.

١١- عبد الرحمن بن خلدون: حياته وآثاره ومظاهر عبقريته، علي عبد الواحد وافي، سلسلة أعلام العرب، العدد ٤، مكتبة مصر، د.ت.
١٢- فهارس كتاب الأصول في النحو لأبي بكر بن السراج، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦م.
١٣- في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، دار الغرب الإسلامي، د.ت.
١٤- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م، نُسخَة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية ١٣٠١هـ.
١٥- كتاب الشعر، أو شرح الأبيات مشكلة الإعراب، لأبي علي الفارسي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨م.
١٦- الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.
١٧- لِسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرَّم ابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، ١٩٨١م.
١٨- المُحكَم والمُحيط الأعظم في اللغة، علي بن إسماعيل بن سِيدَه، تحقيق محمد علي النجار وآخرين، الطبعة الأولى ١٩٥٨م.
١٩- محمود الطناحي ذِكرى لن تغيب، إعداد محمد محمود الطناحي، مطبعة المَدَنِي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
٢٠- محمود الطناحي عالِمُ العربيَّةِ وعاشقُ التراثِ، أحمد العلاونة، ضمن سلسلة علماء ومفكرون معاصِرون، لَمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم، العدد ٩، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

٢١- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤م.
٢٢- مَقالات العلَّامة الدكتور محمود محمد الطناحي: صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
٢٣- مَقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر ١٩٧٩م.
٢٤- مقدِّمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، الطبعة السابعة ٢٠١٤م.
٢٥- الملكة اللسانية عند علماء العربية، حازم القرطاجني أنموذجًا، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ٢٠١٥م.
٢٦- مِن أسرارِ اللُّغَةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ، مُعجم لُغوي ثقافِي، محمود محمد الطناحي، المكتبة المكية، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
٢٧- موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل، القاهرة، بيروت، تونس، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.